مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيم

«١١»



في سُورَةِ هُودْ

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣


المسؤولية والجزاء
في سورة هود



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن سلوك الإنسان في حياته ينبع من نظرته إلى الحياة، ومدى إدراكه لحكمة خلقه وجوهر وجوده فيها، ولا بد للمؤمن بالله تعالى أن يرى الحياة دار اختبار وتكليف، وأنه مسؤول عنها أمام الله تعالى، لأنه سبحانه عليم حكيم، يتنزه عن العبث واللعب، فما خلق الخلق وجعله على هذا النظام المحكم البديع للعبث واللعب، ما خلقهم سبحانه إلا بالحق، ليؤدوا رسالة كلفهم بها، ويعمروا الأرض بطاعته وعبادته.

وإن انصراف أكثر الناس عن هذه العقيدة، وتجاهلهم لهذه الحقيقة، هو السبب الرئيسي لكل شقاء وفساد وبغي في الأرض، فالحياة بدون تكليف ومسؤولية حياة تافهة فارغة لا تطاق، تورث الإنسان الشعور بالإحباط والسآمة والملل، وقد تدفعه إما إلى اليأس والحيرة، أو إلى الإجرام والظلم والبغي والعدوان، وهو واقع أكثر الناس في ظل هذه الحضارة المادية المعاصرة، التي أقيمت على عدم الشعور بالمسؤولية أمام الخالق العظيم، وعدم الالتزام بأحكام دينه وشريعته.

إن تعريف الناس بمسؤوليتهم أمام خالقهم، أعظم القضايا التي اهتم بها القرآن الكريم، بعد قضية توحيد الحق سبحانه، وقل أن تمر بنا سورة

من سور القرآن الكريم، إلا ونرى فيها تقريراً لهذه المسؤولية، أو دعوة للتصديق بها، أو رداً على الجاحدين لها.

وقد برز هذا الموضوع في سورة هود، كموضوع أساسي لها، دارت معظم آياتها في فلكه، فجاءت بحق سورة المسؤولية والجزاء.

ولا عجب أن نرى النبي ﷺ، وهو أعظم الناس معرفة بالله تعالى وخشية له، أكثر الناس تقديراً لهذه المسؤولية، حتى روي عنه من طرق متعددة أنه لما رؤي الشيب في رأسه الشريف وقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه: عجل إليك الشيب يا رسول الله. قال: «شيبتني هود وأخواتها». إن الناس في هذا العصر في أمس الحاجة إلىٰ التصديق والإقرار بالمسؤولية والجزاء، فهي السبيل الوحيد لصقل نفوسهم وتقويم سلوكهم، وتعريفهم بقيمة حياتهم وجوهر وجودهم، وإبعاد الحيرة والقلق والاضطراب عن نفوسهم وقلوبهم الحائرة القلقة المضطربة، إنها بر الأمان وسلم النجاة لأولئك الحائرين الشاردين التائهين، الذين أفرزتهم الحضارة المادية المعاصرة، وضيعتهم الفلسفات الوجودية الفارغة، فما أحوجهم إلى مثل هذا الكتاب الذي جاء بحمد الله في ثلاثة فصول، منسجمة تماماً مع سياق الآيات في السورة.

الفصل الأول: التكليف والمسؤولية، الفصل الثاني: قصص من التاريخ، الفصل الثالث: الاستقامة على التكليف والتحذير من الظلم.

أسأل الله تعالى أن يثبتنا على الحق، وينور قلوبنا بأنوار التنزيل الحكيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل وصحبه وسلم.

عبد الحميد محمود طهماز

المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة

مكة المكرمة

٢٠/ ٤/ ١٤١٢

مَوضُوع السُّورَة

الناس في سورة هود فريقان:

أولهما الفريق المؤمن بالله تعالى، الذي يرى أن حياته في الدنيا للابتلاء والتكليف، وأنه مسؤول عنها أمام الله تعالى يوم القيامة، فمثاب أو معاقب.

والفريق الثاني كافر بالله تعالى، جاحد لفضله وإحسانه، سلخ نفسه عن الشعور بأي تكليف ومسؤولية، والحياة في نظره لا قيمة لها ولا معنىٰ، سوى أنها فرصة يحقق فيها أهواءه ونزواته، ثم تنتهي كما انتهت حياة من سبقه.

ولا شك أن بين الفريقين تبايناً كبيراً في الاعتقاد والأخلاق والسلوك والمعاملات، ومنشأ هذا التباين الاختلاف الكبير بينهما في النظر إلى الحياة، فالمؤمن ملتزم بدين الله وشرعه، متبع لرسالة أنبيائه، إن أصابته ضراء صبر ولجأ إلىٰ الله تعالى، وإن أصابته سراء شكر وظل ملتزماً بمنهج الاستقامة.

أما الكافر فهمه قاصر على الدنيا وما فيها من زينة وبهارج وزخارف، يؤس في الضراء، بطر فخور في السراء.

﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤسٌ كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور.

إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾.

فشتان ما بين الحياتين، حياة أساسها التكليف والمسؤولية، وحياة لا أساس لها ولا هدف، فمثل ما بين الفريقين من تباين كما بين البصير والأعمى: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون﴾.

ثم أوردت السورة بعض قصص الأنبـياء مع أممهم، إظهاراً للتباين بين الفريقين بشواهد من واقع الحياة البشرية على الأرض، وأظهرت من خلال عرضها لهذه القصص طبيعة هذه المسؤولية وأبعادها، ومدى تأثيرها على استمرار الحياة البشرية وبقاء العمران.

ثم أبرزت فيما عقبت به على قصص الأنبياء مع أممهم، حجم وعمق الجزاء المترتب على هذه المسؤولية، وأنه سيكون وافياً، وأنه يبدأ من الدنيا ويمتد إلى الآخرة، وأنه لا يستفيد من هذه القصص ولا يعتبر بها إلا الذين يؤمنون بمسؤوليتهم عن الحياة الدنيا أمام الله يوم القيامة.

كما أن الانسلاخ عن هذه المسؤولية يؤدي إلى نشر الفساد والترف والظلم في المجتمعات البشرية، ثم يؤدي بها إلى السقوط والهلاك.

والناس كما كانوا في الدنيا فريقين، سيكونون يوم المسؤولية والجزاء فريقين أيضاً، الأشقياء والسعداء، وسيكون مصيرهما متبايناً تبايناً جذرياً.

فموضوع المسؤولية والجزاء يظلل آيات السورة من أولها، عندما أبرزت جانب الإنذار في رسالات الأنبياء، إلى آخرها عندما تحدثت عن مصير السعداء والأشقياء يوم القيامة.

الفَصل الأول
التّكْليفُ وَالمسْؤُوليّة



إِحْكَامٌ وَتَفْصِيْلٌ

بدأ سبحانه وتعالى سورة هود كما بدأ من قبلها سورة يونس، ومن بعدها سورة يوسف، بقوله الكريم:

﴿ألر﴾ وهي من الحروف النورانية المقطعة، التي سبق الكلام عليها في أول سورة البقرة وآل عمران والأعراف.

﴿كتاب﴾ أي: هذا كتاب، أو هو كتاب، عظيم الشأن جليل القدر.

﴿أحكمت آياته﴾ أي: نظمت نظماً متقناً متناسقاً محكماً جميلاً، كالبناء المحكم الذي لا خلل فيه ولا نقص، فلا اختلاف بينها ولا تعارض ولا تنافر، فكل كلمة فيها في موضعها المناسب لها، والمنسجمة تماماً مع ما قبلها وما بعدها، وكل حرف له دلالته ووقعه وجرسه، بلا زيادة فيها ولا نقص، وكل آية في موضعها المناسب لها في السورة، مما يجعلها تنسجم تماماً مع سياقها وسباقها ومعناها.

وهي محكمة أيضاً في معانيها البليغة وحججها القاطعة، الدالة على أنها كلام الله تعالى، فإحكامها في نظمها ومعانيها.

والإحكام في القرآن الكريم كامل في حروفه وكلماته وآياته وسوره، وهو إحكام معجز، يدل على أنه كلام الحكيم العليم جل وعلا، كما قال

تعالى في أول سورة يونس: ﴿الر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾[1] وكقوله أيضاً: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿وإنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[3].

وجاءت آيات القرآن الكريم محكمة، مع أنها نزلت منجمة على مدى ثلاث وعشرين سنة، نزلت أحياناً الآية أو بعضها، أو الآيات من السورة أو السورة كاملة، على حسب الوقائع والمناسبات، فما أعظم إحكامه، فهو محكم في الأرض بعد التنزيل، كما أنه محكم في السماء.

وفي القرآن الكريم إحكام باهر معجز أيضاً، مع أن فيه تأصيلاً وتفصيلاً، فتأصيل القواعد والمبادىء، وتفصيل الأحكام وتفريعها، لم يؤثر في الكتاب الكريم على إتقانه وإحكامه وانسجامه، ولهذا قال تعالى:

﴿ثم فصلت﴾ أي: جعلت مفصلة، مشتملة على كل ما يحتاج إليه الإنسان في دينه، ففيه بيان العقيدة الصحيحة مع أدلتها العقلية والنقلية، وبيان العبادات والأحكام وسائر التكليفات، فضلاً عما فيه من أخبار الأمم السابقة، والأمثال والحكم والمواعظ وما سيكون في الحشر والمعاد... إلخ، كما قال تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[4].

وقد يكون المراد من التفصيل نزول القرآن منجماً، فـ (ثم) على هذا المعنىٰ تفيد الترتيب الزماني، وقدمنا أن نزوله منجماً لم يؤثر على إحكامه وإتقانه؛ لأنه:

---

(١) يونس: الآية ١.
(٢) النساء: الآية ٨٢.
(٣) فصلت: الآية ٤٢.
(٤) النحل: الآية ٨٩.

﴿من لدن حكيم خبير﴾ [١] أي: أحكم آياته حكيم وفصلها خبير، عالم بحقائق الأمور جل وعلا.

نــذارة وبشــارة

وفي هذا الإحكام والتفصيل دعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، والانقياد لدينه سبحانه وشرعه واتباع رسله:

﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي: لئلا تعبدوا إلا الله، فتقبلوا على عبادته وحده، وتعرضوا عن عبادة غيره.

﴿إنني لكم منه نذير وبشير﴾ [٢] أي: إنني لكم من جهته تعالى نذير، أنذركم عذابه إن لم تتركوا ما أنتم عليه من كفر وشرك وعبادة غيره سبحانه.

وبشير أبشركم برحمته وثوابه إن آمنتم به وحده، وتمسكتم بدينه وشرعه، فأنتم مسؤولون أمامه جل وعلا، ومحاسبون عن أعمالكم في حياتكم، والله سبحانه لم يخلقكم عبثاً، ولن يترككم سدى، ولهذا أرسلني إليكم نذيراً وبشيراً، وهو القائل: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾(١)، والقائل أيضاً: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى. ألم يك نطفة من مني يمنىٰ. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثىٰ. أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتىٰ﴾(٢).

استغفــار وتــوبــة

فاقبلوا دعوة الله تعالى وأسلموا له، وادخلوا في دينه، واسألوه أن

---

(١) المؤمنون: الآيتان ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) القيامة: الآيات ٣٦ ـ ٤٠.

يغفر لكم ما سلف منكم من آثام وخطايا، مع التوبة عنها بتركها والندم على فعلها:

﴿وأن استغفروا ربكم﴾ أي: اسألوه مغفرة ما مضىٰ من ذنوبكم.

﴿ثم توبوا إليه﴾ أي: ثم توبوا إلى الله في المستقبل، بالندم على ما فات، والإقلاع في الحال، والعزم على عدم العود في المستقبل، فلا يقال: إن الاستغفار هو التوبة، بل بينهما تغاير[1] وأصل معنىٰ الاستغفار طلب الغفر، أي: الستر، ومعنىٰ التوبه الرجوع، ويطلق الأول على طلب ستر الذنب من الله تعالىٰ والعفو عنه، والثاني على الندم عليه مع العزم على عدم العود إليه، والقلب يميل فيه إلى حمل الأمر الثاني على الإخلاص في التوبة والاستمرار عليها[2].

﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ أي: يمتعكم في الدنيا بحياة طيبة حسنة، فمن عبد الله وحده وتاب من ذنوبه، عاش في أمن وراحة ورضا نفس، كما قال تعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾[3]، وسيأتي معنا قول هود لقومه: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾. وإن ضيقت عليه الدنيا أحياناً، فهو ابتلاء من الله تعالى لتكفير سيئاته ورفع درجاته، وتبقىٰ حياته مع ذلك طيبة، لأنه يرجو الله تعالى ويتقرب إليه ويرضىٰ بما قدره له.

﴿إلى أجل مسمىً﴾ وهو الموت، فألطافه سبحانه تحف بكم، وعنايته تحوطكم طول حياتكم، حتىٰ تنتهي بالموت آجالكم، إن أخلصتم

---

(١) الصاوي على الجلالين: ١٩٣/٢.
(٢) روح المعاني: ٢٠٧/١١.
(٣) نوح: الآيات ١٠ ـ ١٢.

في عبادته تعالى وطاعته والتوبة إليه.

ودلت الآية على أن منافع الدنيا صغيرة خسيسة منقضية، ولهذا سماها بالمتاع.

تقرير المسؤولية

﴿ويؤت كل ذي فضل﴾ أي: في الطاعة والعمل الصالح.

﴿فضله﴾ أي: جزاء فضله، إما في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً، فلا يضيع عنده تعالى شيء أبداً، قال سبحانه: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾[1]، فاستكثروا من الأعمال الصالحة، وتنافسوا في تحصيلها، فإن التنافس في الطاعات عمل مبرور مشكور، حثنا عليه سبحانه فقال: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾[2].

وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص: «ومهما أنفقت فهو لك صدقة، حتى اللقمة ترفعها في في امرأتك»[3].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة، وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره[4]. أي: هلك من كانت سيئاته أكثر من حسناته بعشرة أضعاف.

---

(١) البقرة: الآية ١٤٣.

(٢) المطففين: الآية ٢٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النفقات: (٥٣٥٤).

(٤) تفسير الطبري: ١١/١٨٢.

﴿وإن تولوا﴾ أي: تعرضوا عن الإيمان وتصروا على الكفر. وأصلها: تتولوا.

﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ [٣] هو يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء، وقد وصفه تعالى في موضع آخر بالعظم، فقال: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[١].

فيوم المسؤولية والجزاء يوم كبير وعظيم، أكده تعالى أيضاً بقوله:

﴿إلى الله مرجعكم﴾ أي: إلى حكمه وأمره مرجعكم يوم القيامة، فلا مفر لكم منه، ولا رجوع لكم إلى غيره تعالى.

﴿وهو على كل شيء قدير﴾ [٤] فلا يستعصي على قدرته شيء من الممكنات، فهو تعالى قادر على موتكم وإحيائكم وبعثكم من قبوركم، وحشركم وحسابكم وجزائكم.

كمال علمه تعالى

هكذا أوصلت الآيات إليهم دعوة الله تعالى، على لسان النبي ﷺ، وقررت مسؤوليتهم عن أعمالهم، وأظهرت شفقته عليه الصلاة والسلام عليهم من هذه المسؤولية، وما يترتب عليها يوم القيامة من حساب وجزاء، ومع هذه الدعوة المشوبة بالشفقة عليهم، أعرضوا عنها وأصروا على كفرهم وفجورهم:

﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ أي: يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر، مستمرين على ما كانوا عليه من التولي والإعراض، فإن من أعرض عن شيء ثنىٰ عنه صدره.

﴿ليستخفوا منه﴾ أي: ليبقىٰ ما في صدورهم مخفياً عن الله تعالى.

---

(١) المطففين: الآية ٤ ـ ٦.

ولعل نص الآية إنما يصور حالة واقعة كانت تصدر عن المشركين، ورسول الله ﷺ يسمعهم كلام الله تعالى، فيثنون صدورهم ويطأطئون رؤوسهم استخفاء من الله، الذي كانوا يحسون في أعماقهم أنه قائل هذا الكلام، وذلك كان يظهر منهم في بعض الأحيان[1]. لكنه سبحانه يعلم السر وأخفىٰ، فلا يخفون عليه سبحانه وتعالى في جميع أحوالهم:

﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ أي: حين يغطون أنفسهم بثيابهم للنوم، وكثيراً ما يحدث الإنسان نفسه في هذا الوقت، وتمر به الخواطر والهواجس.

﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي: يستوي بالنسبة إلى علمه تعالى سرهم وعلنهم.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ [٥] وهو تعليل لما سبق وتقرير له، فهو سبحانه يعلم بما في صدورهم وقلوبهم من الخواطر والهواجس، لا يخفىٰ عليه شيء منها، فكيف يخفىٰ عنه ما يسرون وما يعلنون.

وقد وسع علمه تعالى كل شيء من مخلوقاته، فهو ليس قاصراً عليهم، ولهذا قال تعالى يبين كمال علمه ورحمته وإحسانه على خلقه:

﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ والدابة كل ما يدب على الأرض، أي: يمشي عليها ويسير، فشملت جميع الدواب عاقلة وغير عاقلة، فما من مخلوق يدب على الأرض إلا على الله تعالى غذاؤه ومعاشه.

وتستعمل كلمة ﴿على﴾ للوجوب، فهو كالواجب عليه تعالى بحسب الوعد والفضل والإحسان، والمراد أنه تعالى التزم به وتكفل به التزاماً لا يتخلف، ففي الحقيقة ﴿على﴾ بمعنىٰ: من، وجاء التعبير بـ ﴿على﴾ ليزداد العبد ثقة بربه وتوكلاً عليه، وإن أخذ بالأسباب فلا يعتمد عليها، بل

---

(١) في ظلال القرآن: ١٢/٥١٤.

يثق بالله ويعتمد عليه، وليكن أخذه بالأسباب امتثالاً لأمره تعالى[1]، قال سبحانه: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[2]. وقال أيضاً: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[3].

﴿ويعلم مستقرها﴾ أي: موضع قرارها في الأصلاب.

﴿ومستودعها﴾ أي: موضعها في الأرحام، قال العلامة الآلوسي رحمه الله. فالنطفة بالنسبة إلى الأصلاب في حيزها الطبيعي ومنشئها الخلقي، وأما بالنسبة إلى الأرحام فهي مودعة فيها إلى وقت معين[4].

وفي هذا إشارة إلى حقيقة علمية في علوم تكوين الجنين، ترى أن الخلايا الجنسية الابتدائية تشتق من جدار الحويصل المحي، ثم تهاجر وتنتقل إلى الغدد الجنسية الآخذة بالتكون في ظهر المخلوق الجديد، ثم تتكاثر فيها، قال تعالى: ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾[5].

فعلمه تعالى محيط بأحوال مخلوقاته كلها، من بداية خلقها، وفي أثناء تقلباتها وأطوارها، ويوصل إليها الرزق على حسب الأحوال والأطوار التي تكون فيها.

﴿كل في كتاب مبين﴾ [٦] أي: كل ما ذكر في كتاب مبين، هو اللوح المحفوظ، ففيه جميع أرزاق الدواب وأمكنتها وأزمنتها وأحوالها، وهذا من باهر قدرته تعالىٰ، لزيادة طمأنينة العبد بربه، ومراجعة الملائكة الموكلين بالأرزاق، لا خوفاً من نسيانه، إذ هو مستحيل عليه[6].

---

(١) الصاوي على الجلالين: ١٩٤/٢.
(٢) الملك: الآية ١٥.
(٣) الجمعة: الآية ١٠.
(٤) روح المعاني: ١٢/٣.
(٥) الأنعام: الآية ٩٨. انظر: بصائر الحق في سورة الأنعام للمؤلف.
(٦) الصاوي على الجلالين: ١٩٤/٢.

فهو كقوله تعالى ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾[2].

الخلق والابتلاء بالتكليف

وبعد أن بينت الآيات كمال علمه تعالى، بينت كمال قدرته:

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ أي: خلق سبحانه السموات والأرض وما فيهن في ستة أوقات، ولم يخلقهن دفعة واحدة في وقت واحد، مع قدرته التامة على ذلك، والمراد باليوم الوقت مطلقاً، لا اليوم المتعارف، ودل الخلق المتدرج على أنه تعالى خلق الخلق بمحض إرادته ومشيئته وبقدرته، وقد فصل تعالى مراحل الخلق في موضع آخر فقال: ﴿قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلىٰ السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾[3].

﴿وكان عرشه على الماء﴾ أي: كان عرشه قبل خلقهما على الماء.

وهو دليل على أن خلق العرش والماء قبل خلق السموات والأرض، وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول

---

(١) الأنعام: الآية ٣٨.

(٢) الأنعام: الآية ٥٩.

(٣) فصلت: الآيات ٩ - ١٢.

الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وعرشه على الماء»[1]. وعن عمران بن حصين قال: إني عند النبي ﷺ، إذا جاءه قوم من بني تميم، فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناس من أهل اليمن، فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء»[2].

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي: خلق الله السموات والأرض وما فيهما، ورتب فيهما كل ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم، وسخرها لكم، ليختبركم بالتكليف، ويظهر المحسن منكم والمسيء، ويميز بين المطيع والعاصي.

ولم يقل: أكثر عملاً، بل قال: ﴿أحسن عملاً﴾، ولا يكون العمل حسناً حتىٰ يكون خالصاً لله عزَّ وجلَّ، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتىٰ فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل[3]. فما خلق الله الخلق عبثاً ولا لعباً، يتنزه تعالى عن ذلك، وقد نفاه تعالى في عدد من الآيات، كقوله: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾[4] وقال سبحانه: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين. ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[5].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب القدر: (٢٦٥٣).
(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد: (٧٤١٨).
(٣) تفسير ابن كثير: ٣٤٨/٢.
(٤) ص: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.
(٥) الدخان، الآيتان: ٣٨ ـ ٣٩.

وبين تعالى في آيات كثيرة أن الابتلاء بالتكليف هو حكمة الخلق، منها قوله تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[2].

فالتكليف والمسؤولية عنه والجزاء أساس وجود الإنسان وخلقه، وهو أيضاً أساس خلق المكونات كلها، وإنكار الإنسان لهذه الحقيقة، ومحاولته الانسلاخ عن الشعور بالمسؤولية، إنكار لجوهر وجوده وحكمة خلقه، وانتكاس عن مرتبة التكليف والتشريف التي ميزه الله بها عن الحيوان.

إنكــار واستهــزاء

ولهذا أوردت الآيات بعد ذلك أقوال المنكرين للبعث والحساب والجزاء، بأسلوب التعجيب:

﴿ولئن قلت إنكم مبعثـون من بعد المـوت﴾ أي: إن واجهتهم بالحقيقة الكبرىٰ التي هي سر وجودهم وحكمة خلقهم، وأنهم مبعوثون بعد الموت للمسؤولية والجزاء.

﴿ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ [٧] أي: لكان منهم انصراف عن مواجهة الحقيقة وتغافل عنها، إلى تكذيب الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ووصف القرآن الكريم بأنه سحر مبين.

فقد ألف القوم الحياة التافهة الفارغة، الخالية عن الشعور بالمسؤولية، ولا يريدون أن يسمعوا من يذكرهم بقيمة حياتهم وجوهر وجودهم، ويرفعهم عن المستوى الهابط الذي انتكسوا إليه وأدمنوا عليه.

وزاد في غرورهم وغفلتهم إمهالهم وتأخير العذاب عنهم، مع أن

---

(١) الملك: الآية ٢.

(٢) الذاريات: الآية ٥٦.

إمهالهم من رحمته تعالى بهم، لعلهم ينتبهون من غفلتهم ويصحون من سكرتهم.

﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلىٰ أمة معدودة﴾ أي: إلى أمد محدود وأجل مسمى. فكلمة ﴿الأمة﴾ تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة، فيراد بها الأمد، كقوله تعالى في هذه الآية ﴿إلى أمة معدودة﴾، وقوله أيضاً: ﴿وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة﴾(١). وتستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾(٢)، وتستعمل في الجماعة كقوله سبحانه: ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾(٣)، وتستعمل أيضاً في الملة والدين، كقوله تعالى إخباراً عن المشركين: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾(٤).

﴿ليقولن ما يحبسه﴾ أي: ما يؤخر هذا العذاب عنا، وأي شيء يمنعه عنا؟ يقولون ذلك استعجالاً للعذاب على وجه الاستهزاء والتكذيب.

﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾ أي: عندما يأتيهم في الأجل المحدد له، لا يرفعه عنهم رافع ولا يدفعه دافع، فلا مناص لهم منه، كما قال تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع﴾(٥).

﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [8] أي: نزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاء وتكذيباً، وعبر عن وقوعه بالماضي لتأكيد وقوعه وتحققه.

---

(١) يوسف: الآية ٤٥.
(٢) النحل: الآية ١٢٠.
(٣) القصص: الآية ٢٣.
(٤) الزخرف: الآية ٢٣. انظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٣٨.
(٥) المعارج: الآيتان ١ ـ ٢.

يأس وكفران

ثم بينت الآيات كيف يكون حالهم عند نزول العذاب بهم، وذلك بشرح أحوال الإنسان النفسية عندما تنزل به غِيَر الزمان، ويواجه صروفه وتقلباته، وما دامت حياة الإنسان حياة ابتلاء واختبار، فهي لا تسير على وتيرة واحدة:

﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة﴾ أي: نعمة، كصحة وسعة وأمن ورخاء.

﴿ثم نزعناها منه﴾ أي: ثم سلبناها منه وحرمناه منها، بعد أن كان متعلقاً بها حريصاً عليها، فكلمة ﴿نزعناها﴾ تشعر بشدة تعلقه بها وحرصه عليها[1].

﴿إنه ليؤوس﴾ أي: شديد القنوط من رحمته تعالى، فلا يرجو أن يعيدها إليه أبداً.

﴿كفور﴾ [٩] أي: عظيم الكفران لما سلف من فضله تعالى وإحسانه عليه.

هذا شأن أكثر الناس عندما تتغير أحوالهم، وتنزل بهم صروف الدهر وغيره، يحزنون على ما فاتهم حتىٰ يغلب عليهم اليأس والقنوط من رحمته تعالى، وينسون أنهم كانوا يتمتعون بنعمه، ويتقلبون في فواضل إحسانه، من غير سابقة استحقاق.

وعندما تتغير أحوالهم من الضيق إلى السعة، ومن الضراء إلى السراء، فإنهم يتكبرون ويتجبرون ويغترون بما في أيدهم، ظانين أن حالهم هذه ستدوم لهم، ينشغلون بالنعمة عن المنعم، فلا يشكرونه، بل يكفرونه ويعرضون عن طاعته، ويستعملون نعمته في معصيته، وينسون أن الحياة دار ابتلاء واختبار، وأنه تعالى يبتليهم بالخير تارة وبالشر أخرى.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦٢/٥.

﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾ أي: أنعمنا عليه بالسعة والرخاء، بعد أن أصابه الفقر والقلة، أو بالصحة بعد المرض، أو بالفرج بعد الضيق والشدة.

﴿ليقولن ذهب السيئات عني﴾ أي: زالت المصائب والنكبات التي أضرت بي وساءتني. هكذا يقتصر بنظره على الأسباب، ويغفل عن مسبب الأسباب الذي قدر كل شيء.

﴿إنه لفرح فخور﴾ [١٠] أي: إن الإنسان في تلك الحالة بطر متكبر، يفخر على الناس بما أعطاه الله تعالى، ويشغله الفرح والفخر عن شكر خالقه وطاعته، ففرحه بالنعمة قوي شديد، يصل به إلى حد البطر والكبر، وسبب شدة فرحه أن منتهى أمل الكافر محصور بالدنيا فقط، فإذا وجد الدنيا فكأنه قد فاز بغاية السعادات(١).

ويلاحظ أنه تعالى أسند إيصال الخير إلى ذاته جل وعلا، فقال: ﴿أذقناه نعماء﴾ ولم يسند إلى ذاته إيصال الشر فقال ﴿بعد ضراء مسته﴾ مع أن كل شيء بعلمه وتقديره ومشيئته، فدل بذلك على أن مراده تعالى رحمة عباده والإحسان إليهم، وأن ما ينالهم من شر وضر بسبب سوء كسبهم واختيارهم، كما قال في موضع آخر: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾(٢)، وقال أيضاً: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً﴾(٣).

صبر وشكر

ثم استثنت الآيات من هذه الأحوال، المؤمنين بالله تعالى، الذين يرون الحياة على حقيقتها، ويكشف لهم إيمانهم بالله عن جوهرها، فهم

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٥/٦٠.

(٢) الشورى: الآية ٣٠.

(٣) النساء: الآية ١٤٧.

يرونها حياة ابتلاء واختبار، فيها تكليف ويترتب عليه مسؤولية وجزاء، فلم يخلقوا عبثاً لمجرد الأكل والشرب واللذة والمتاع، ولا بد أن تختلف أحوالهم عن أحوال غيرهم عندما يواجهون تقلبات الحياة، إنهم يصبرون عند الشدة والضراء، ويشكرونه تعالى عند السعة والرخاء:

﴿إلا الذين صبروا﴾ أي: على ما أصابهم، إيماناً بالله واستسلاماً لقضائه.

﴿وعملوا الصالحات﴾ أي: فلا تشغلهم النعمة عن طاعته تعالى وعبادته وشكره، وفي الحديث الشريف عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1] فالإيمان بالله تعالى هو النور الكاشف، ينير للإنسان طريق حياته، ويحدد له المواقف والمنعطفات، ويعينه على تجاوز العقبات وتحمل المشقات، وهو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة، كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء، كما في قوله تعالى: ﴿والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[2]، وقوله أيضاً: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً. إذا مسه الشر جزوعاً. وإذا مسه الخير منوعاً. إلا المصلين﴾[3].

﴿أولئك لهم مغفرة﴾ أي: لهم ستر لذنوبهم ومعاصيهم وتجاوز عنها، فالمؤمن غير معصوم من الذنوب، فقد يدركه ضعف الإنسان فيخطىء ويزل، ولكنه لا يصر على المعصية ولا يتمسك بها.

﴿وأجر كبير﴾ [١١] أي: لهم أجر كبير على طاعتهم لله تعالى وانقيادهم لدينه وشرعه.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد: (٢٩٩٩).

(٢) العصر.

(٣) المعارج: الآيات ١٩ ـ ٢١.

هكذا جمعت لهم الآية بهذه البشارة بين مطلبين كبيرين، هما الخلاص من العذاب والفوز بالثواب.

تثبيت وتحريض

والتفتت الآيات إلى النبي ﷺ، تثبته في مواجهة عناد المشركين وجحودهم، وتحثه على متابعة تبليغهم وإقامة حجة الله تعالى عليهم.

﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ أي: فلعلك لشدة ما تراه من كفرهم وعنادهم تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك.

ولعل للترجي، وهو يقتضي التوقع، ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه ولا ترجح وقوعه، لجواز أن يوجد ما يمنع منه، والمانع منه عصمته ﷺ عن كتم الوحي المأمور بتبليغه، والمقصود من ذلك تحريضه عليه الصلاة والسلام، وتهييج داعيته لأداء الرسالة[1].

قال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾[2].

وقد يكون المقصود الاستفهام الإنكاري، الذي يفيد نفي واستبعاد ترك تبليغهم، وحضه على التبليغ مع عدم المبالاة بتكذيبهم وعنادهم[3].

﴿وضائق به صدرك﴾ أي: عارض لك ضيق صدر عند تلاوته عليهم، بسبب مسارعتهم إلى رده وتكذيبه.

وقال تعالى ﴿ضائق﴾ ولم يقل: ضيق؛ ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان أفسح الناس صدراً[4].

وما كان ضيق صدره من تلاوة القرآن الكريم، بل كان من عنادهم

---

(1) روح المعاني: ١٨/١٢.
(2) المائدة: الآية ٦٧.
(3) تفسير القرطبي: ١٢/٩.
(4) تفسير النسفي: ١٨٢/٢.

وجحودهم ومسارعتهم إلى تكذيبه، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ أي: مخافة أن يقول المشركون: هلا أنزل عليه مال كثير، أو جاء معه ملك يصدقه.

﴿إنما أنت نذير﴾ أي: ليس عليك إلا إنذارهم بما أوحاه الله إليك، فلا تبال بعنادهم وتكذيبهم، والاقتصار على صفة النذير لمناسبة المقام، فالمقام مقام ترهيب ووعيد.

﴿والله على كل شيء وكيل﴾ [١٢] أي: حافظ يحفظ كل ما يقولون، فتوكل عليه وفوض أمرك إليه، واستمر في تبليغهم، كما قال تعالى: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفىٰ بالله وكيلاً﴾[١].

التحدي بالقرآن الكريم

ولا شك أن معجزة القرآن الكريم كافية لبيان صدق رسالته عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته، فالإعراض عنها، وعدم الاعتداد بها، أشد قبحاً وشناعة من مواقف العناد والجحود، ومن سؤالهم ما سألوا من المعجزات، ولهذا قال تعالى:

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: بل أيقولون افتراه وأنه ليس من عند الله. وهو إضراب بـ﴿أم﴾ المنقطعة عن ذكر مواقفهم السابقة إلى ما هو أقبح منها.

﴿قل فأتوا بعشر سور مثله﴾ أي: قل لهم: إن كان الأمر كما تقولون، فأتوا بعشر سور مثل القرآن الكريم، في البلاغة والنظم والمعنىٰ.

﴿مفتريات﴾ أي: مختلقات من عند أنفسكم، إن صح أني اختلقته من عندي.

---

(١) الأحزاب: الآية ٤٨.

والجدير بالذكر أن هذا التحدي بعشر سور حدث أولاً قبل الهجرة؛ لأن سورة هود من السور المكية، ثم تحداهم بسورة واحدة، فأنزل في سورة البقرة المدنية قوله الكريم: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾(١).

ومعجزة القرآن الكريم خالدة باقية، والتحدي به لا يزال قائماً، والقرآن الكريم لا يزال في الساحة نقياً غضاً طرياً، يتحدى المعارضين لدعوته والمنكرين لصحته.

﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ أي: ظهر عجزهم عن الاستجابة للتحدي، والخطاب لعامة المسلمين، وجاء عاماً بعد أن كان خاصاً بالنبي ﷺ، فدل على بقاء المعجزة القرآنية وخلودها، واستمرار التحدي بها في كل زمان ومكان.

﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ أي: اعلموا علماً يقينياً لا شائبة فيه بوجه من الوجوه، أنما أنزل القرآن الكريم، ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله من وجوه إعجازه، في بيانه ونظمه ومعانيه، فلا يحيط بها غيره تعالى.

﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أي: واعلموا أيضاً أن لا إله إلا هو وحده المستحق للعبادة، فتمسكوا بعبادته وطاعته، وازدادوا يقيناً بأن القرآن منزل من عنده تعالى.

﴿فهل أنتم مسلمون﴾ [١٤] أي: فهل أنتم مخلصون ومستسلمون لله تعالى ولشرعه.

ويمكن أن يكون الخطاب للمشركين في قوله: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ أي: من دعوتموهم للمعاونة ﴿فاعلموا﴾ أيها المشركون المعاندون ﴿أنما أنزل بعلم الله﴾ أي: بإذنه وأمره، ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي: متبعون للإسلام بعد هذه الحجة القاطعة(٢).

---

(١) البقرة: الآية ٢٣.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٢/١٨٨.

عمل الدنيا وعمل الآخرة

وقسمت الآيات الناس إلى فريقين، فريق يحصر همه ونشاطه بالدنيا وبهارجها وزينتها، وفريق آخر ينظر إلى الآخرة ويهتم بها، ويجعل حياته الدنيا ونشاطه فيها قنطرة إلى الآخرة:

﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي: من كان يريد بعمل الخير والبر الحياة الدنيا وما يحسنها ويزينها، كمن يبني المستشفيات للفقراء ويساعد الضعفاء والمحتاجين، للسمعة والشهرة، أو لكسب أصواتهم في الانتخابات، والوصول إلى المناصب العالية الدنيوية.

وإدخال كلمة ﴿كان﴾ على إرادتهم الدنيا للدلالة على استمرارها منهم، بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلاً[1].

﴿نوف إليهم أعمالهم فيها﴾ أي: نوصل إليهم أجور تلك الأعمال في الدنيا كاملة، فإذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من أجور تلك الأعمال شيء.

﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ [١٥] أي: وهم في الدنيا لا ينقصون شيئاً، ويوفون أجورهم بحسب ما يشاء الله تعالى، لا بحسب ما يشاؤون، فما كل ما يتمناه المرء يدركه، قال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾[2].

﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ أي: أولئك المريدون للدنيا وزينتها، الذين ليس لهم يوم القيامة إلا النار؛ لأنهم لم يعملوا للاخرة، وسلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية فيها، فلا جرم ليس لهم في الآخرة إلا النار.

﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ أي: وظهر في الآخرة حبوط صنعهم الذي

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦٧/٥.
(٢) الإسراء: الآية ١٨.

صنعوه في الدنيا، والذي كان يمكن أن يؤدي إلى الثواب في الآخرة لو صنعوه لها.

﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ [١٦] لأن عمل الدنيا باطل فاسد، بينما عمل الآخرة مقبول مبرور، كما قال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾[1].

البينة والشاهد

ثم عقدت الآيات مقارنة بين الفريقين، وشرعت تتحدث أولاً عن الفريق المؤمن:

﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ أي: كان على نور واضح ودليل ظاهر من ربه، وهو القرآن الكريم، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتىٰ تأتيهم البينة. رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة. فيها كتب قيمة﴾[2]، وقوله سبحانه أيضاً: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾[3].

فالقرآن الكريم هو البينة الذي يبين الحق ويوضحه، وهو النور الهادي إلى سواء السبيل. واسم الموصول ﴿أفمن﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: كمن ليس كذلك، وحذف الخبر لدلالة سياق الآية عليه.

﴿ويتلوه شاهد منه﴾ أي: يتبعه شاهد يشهد بأنه من عند الله تعالى، وهذا الشاهد من القرآن الكريم نفسه، غير خارج عنه، وهو إعجازه الباهر، كما مر في آية التحدي بالقرآن عند قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا

---

(١) الشورى: الآية ٢٠.
(٢) البينة: الآيتان ١ ـ ٢.
(٣) الزمر: الآية ٢٢.

بعشر سور مثله مفتريات﴾. وفسر بعضهم البينة بالفطرة التي فطر سبحانه الناس عليها، وهي كلمة التوحيد، التي قال تعالى فيها: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[١].

وقال فيها النبي ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ـ أي لا نقص فيها ـ هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة راوي الحديث: واقرءوا إن شئتم: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً في خطبة له: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم...»[٣]

وأما الشاهد فهو ما أوحاه الله إلى الأنبياء، من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة، المختتمة بشريعة محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين[٤].

﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى، وهو التوراة.

وتخصيص كتاب موسى عليه السلام بالذكر؛ لأن جميع أهل الكتاب مجتمعون على أنه من عند الله تعالى، بخلاف الإنجيل، فإن اليهود مخالفون فيه، فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الفريقين أولى[٥].

---

(١) الروم: الآية ٣٠.
(٢) صحيح مسلم، كتاب القدر (٢٦٥٨).
(٣) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم، كتاب الجنة: (٢٨٦٥).
(٤) انظر تفسير ابن كثير: ٢/٤٤٠.
(٥) روح المعاني: ٢٨/١٢.

﴿إماماً ورحمة﴾ أي: أنزل الله تعالى القرآن الكريم إلى الأمة المسلمة، إماماً لهم وقدوة يقتدون به في دينهم، ورحمة منه تعالى بهم، فهو نعمة عظيمة تفضل بها سبحانه عليهم.

﴿أولئك يؤمنون به﴾ أي: أولئك المتصفون بتلك الصفة الحميدة، وهي أنهم على بينة من الله تعالى في جميع شؤون حياتهم، يصدقون بالقرآن الكريم، ويتمسكون بأحكامه، ويجعلونها نبراس حياتهم.

﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾ أي: من يكفر بالقرآن الكريم من جميع أهل الملل والنحل الأخرى، إذ هو رسالة الله تعالى إلىٰ الناس كافة حتىٰ قيام الساعة.

﴿فالنار موعده﴾ أي: فهو معذب فيها لا محالة، كما مر عند قوله تعالىٰ ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾.

وقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»[١].

﴿فلا تك في مرية منه﴾ أي: لا تكن أيها الإنسان في شك من أمر القرآن الكريم، وأنه من عند الله تعالى.

﴿إنه الحق من ربك﴾ أي: إنه الحق الثابت من ربك الذي يربيك في دينك ودنياك.

﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ [١٧] أي: ومع ظهور البينة وقوة الشاهد، وظهور أدلته وحججه، فإن كثيراً من الناس لا يصدقون به أو يعرضون عنه عناداً واستكباراً، أو انهماكاً بالدنيا وانشغالاً بشهواتها عن الآخرة، قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾[٢].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١٥٣).

(٢) يوسف: الآية ١٠٣.

مقارنة وتمثيل وتقرير

ثم انتقلت الآيات للحديث عن الفريق الثاني، الفريق الكافر الفاجر؛ لتتم المقارنة بينهما: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي: لا أظلم ممن يكذب على الله تعالى، وينسب إليه ما لا يليق بجلاله وكماله وحكمته، كمن ينسب إليه سبحانه الولد والشريك، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، أو يجحد حكمته تعالى في خلقه، فينكر يوم القيامة وما فيه من مسؤولية وجزاء.

﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ أي: أولئك الموصوفون بأقبح الظلم وأشده، يعرضون يوم القيامة على ربهم للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾[1].

﴿ويقول الأشهاد﴾ أي: الذين يشهدون عليهم يوم القيامة كالنبيين، أو جوارحهم التي ينطقها الله لتشهد عليهم.

﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾ أي: بالافتراء عليه تعالى ووصفه بما لا يليق بكماله وجلاله وغناه.

ويجوز أن يكون المراد بالأشهاد الحضار، وهم جميع أهل الموقف، علىٰ ما قاله قتادة ومقاتل من علماء التفسير، ويكون قولهم: ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾ ذماً لهم بذلك، لا شهادة عليهم[2].

ويؤيده الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدنىٰ المؤمن من ربه حتىٰ يضع عليه كفنه، فيقرره بذنوبه، تعرف ذنب كذا؛ يقول: أعرف، يقول: رب أعرف، فيقول: سترتها في الدنيا وأغفرها لك اليوم، ثم تطوى صحيفته وأما الآخرون ـ أو

---

(١) الأنعام: الآية ٣٠.

(٢) تفسير أبي السعود: ٥/٧٢.

الكفار ـ فينادى على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم»[1].

﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ [١٨] أي: يقول الله تعالى ذلك، مما يدل على شدة وقبح عاقبة ظلمهم وافترائهم عليه تعالى.

أو يقول ذلك جميع أهل الموقف، نسأله تعالى أن يعيذنا من الخزي على رؤوس الأشهاد، وأن يغفر ذنوبنا ويستر عيوبنا.

ثم ذكرت الآيات بعض قبائحهم وجرائمهم؛ لتبين استحقاقهم لهذا المصير الأليم.

﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ أي: يمنعون الناس عن الدخول في دين الله تعالى، ويفتنونهم عن دينه بوسائلهم الشيطانية الكثيرة، كتهديدهم بالسجن والتعذيب والقتل، والتضييق عليهم في أرزاقهم، وتهجيرهم من أوطانهم، أو بتزيين الباطل لهم، وإغرائهم بشتىٰ أنواع المغريات.

﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي: ويطلبون لها اعوجاجاً، فيصفون دين الله تعالى وشريعته بالاعوجاج، وأنها في نظرهم غير صالحة لعصرهم وزمانهم، وهي في الحقيقة مستقيمة قوية، تلبي حاجات الناس التشريعية في كل عصر ومصر.

وقد يكون المعنىٰ: ويبغون من أهلها أن ينحرفوا عنها بتركها والإعراض عن أحكامها.

﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ [١٩] أي: وفوق كل ذلك هم كافرون بالآخرة وما فيها من مسؤولية وجزاء.

وأفاد تكرار الضمير ﴿هم﴾ تأكيد كفرهم بالآخرة، واختصاصهم به، كأن كفر غيرهم لا يعد شيئاً بالنسبة إلى كفرهم وإنكارهم لمسؤوليتهم أمام الله تعالىٰ.

﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير: (٤٦٨٥).

الجرائم، لا يستطيعون أن يفلتوا أنفسهم من عقابه تعالى لو أنزل بهم، فهم دائماً تحت قهره وفي قبضة قدرته وسلطانه.

﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ أي: وما كان لهم أنصار يمنعونهم من عذاب الله تعالىٰ ويدفعونه عنهم إذا نزل بهم.

﴿يضاعف لهم العذاب﴾ لأنهم كانوا يضلون الناس عن دين الله تعالىٰ، قال سبحانه: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾[1].

﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ [٢٠] أي: غلبت عليهم شهواتهم، واستبد بهم غرورهم وتكبرهم، فحجبوا عن رؤية الحق وسماع أدلته، قال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الإنس والجن لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[2].

ونتيجة ذلك الخسارة الكبرى والعظمىٰ، التي لا تلافي لها:

﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي: خسروا سعادة أنفسهم وراحتها؛ لأنهم سلخوها عن الشعور بمسؤوليتها أمام خالقها وبارئها.

﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ [٢١] أي: وغاب عنهم ما كانوا يفترون من الآلهة المزعومة وشفاعتها.

﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ [٢٢] أي: حقاً أنهم يوم القيامة هم الأخسرون، فهم أخسر من كل خاسر؛ لأنهم كانوا أظلم من كل ظالم.

وحتىٰ تكتمل المقارنة بين الفريقين، ويظهر التباين بين المصيرين،

---

(١) النحل: الآية ٨٨.
(٢) الأعراف: الآية ١٧٩.

بينت الآيات مصير الفريق الأول، الذي كان على بينة من ربه، بقوله تعالى:

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم﴾ أي: اطمأنوا إليه وخضعوا له، ووثقوا بفضله ورحمته، وصدقوا بوعده ووعيده، وأنهم مسؤولون يوم القيامة أمامه.

وأصل الإخبات في اللغة، نزول الخبت، وهو المنخفض من الأرض.

﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ [٢٣] أي: ماكثون فيها أبداً. ثم ضربت الآيات للفريقين مثلاً محسوساً، يظهر شدة ما بينهما من تباين واختلاف، فمن أساليب القرآن الكريم الرفيعة في التربية والتهذيب وتقريب المعاني، ضرب الأمثال:

﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ شبهت الآية فريق الكافرين، بالأعمىٰ الذي لا يبصر والأصم الذي لا يسمع، وشبهت فريق المؤمنين بالبصير قوي الإبصار، وبالسميع شديد السمع.

وهذا المثل يلائم الأحوال والأوصاف التي سبق ذكرها في الآيات، فالكافرون يتعامون ويتغافلون عن مشاهدة آيات الله تعالى المبثوثة في المكونات، ويعرضون عن سماع آيات القرآن الكريم والانتفاع بها، بينما المؤمنون يستعملون أبصارهم في رؤية دلائل الحق التي تدلهم على ربهم، ويسمعون آياته المحكمة، فينفعهم الله تعالى بها، فيعرفون حكمة خلقهم وجوهر وجودهم، وأنهم مكلفون مسؤولون أمام خالقهم جل وعلا.

﴿هل يستويان مثلاً﴾ أي: لا يستويان في المثل والحال والصفة، وهو استفهام إنكاري يذكرنا بالاستفهام الإنكاري الأول في قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه...﴾.

﴿أفلا تذكرون﴾ [٢٤] أي: أفلا تتذكرون أن الفريقين لا يستويان،

لا في الحال ولا في المآل. فكما أنهما لا يستويان في الدنيا عقيدة وسلوكاً وخلقاً، كذلك لا يستويان في الآخرة مصيراً وجزاء.

وكأن الآية تقرر ضرورة المسؤولية والجزاء، للتمييز بين الفريقين، ولهذا قال تعالى في معرض الرد على المنكرين للمسؤولية والجزاء يوم القيامة: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾[2].

---

(١) القلم: الآيتان ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) فاطر: الآيات ١٩ ـ ٢٢.



الفصل الثاني

قِصَصٌ مِنَ التَّارِيخ



تمهيد

ذكرت الآيات في هذا الفصل قصص بعض الأنبياء مع أممهم، ومع أن هذه القصص سبق ذكرها في سورة الأعراف، وذكر بعضها في سورة يونس، إلا أنها هنا اشتملت علىٰ زيادات، وأبرزت أفكاراً ومعاني جديدة، تنسجم مع موضوع السورة، ومع الأفكار التي مرت معنا في صدرها. ففي هذه القصص شواهد واقعية لصفات الفريقين، اللذين مثلت لهما الآيات في قوله تعالى ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون﴾.

فقد أظهرت التباين الواضح بينهما في السلوك والمصير، كما دلت على أن مسؤولية الإنسان عن عمله تمتد من الدنيا إلى الآخرة، وأن ما يترتب عليها من جزاء قد يكون في الدنيا قبل الآخرة، فضلاً عما فيها من تثبيت للنبي ﷺ والمؤمنين، ومواساة لهم وهم يواجهون عناد المشركين وجحودهم، كما أن فيها تأكيداً لصدق رسالته عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته، فقد أبرزت وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم، في إخباره عن المغيبات الماضية من وقائع الأمم وأحداث التاريخ، وأنه حقاً كلام الله تعالى، أنزله بعلمه الذي وسع كل شيء.

كما أظهر سبحانه أيضاً في هذه القصص، الإحكام والتفصيل في آيات السورة؛ تقريراً لما جاء في أول آياتها: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم

فصلت من لدن حكيم خبير﴾، فقد فصل الله في هذه القصص أخباراً مؤكدة لمعاني ما سبق من الآيات، سيأتي إن شاء الله بيانها في موضعها، وبذلك أظهر سبحانه مدى الإحكام والتفصيل والانسجام والاتساق بين آيات السورة الكريمة، إنه كلام العزيز الحكيم.

قصة نوح وقومه

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ أي: فقال لهم:

﴿إني لكم نذير مبين﴾ [٢٥] اقتصر عليه السلام في أول كلامه على الإنذار، لأنه أحس منهم الإعراض، وتوقع الجحود والفساد، والإنذار: إعلام بالمحذور، لا لمجرد التخويف والوعيد، بل وللحذر منه.

﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي: بأن لا تعبدوا وتطيعوا إلا الله تعالى وحده، فهو الذي يستحق العبادة والطاعة.

﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ [٢٦] أي: إني أخاف عليكم أن يصيبكم عذاب يوم أليم.

وقد جاء كلامه عليه السلام تعليلاً للنهي عن عبادة غير الله تعالى، وتحقيقاً للإنذار، وأظهر عليه السلام مع الإنذار شفقته عليهم، فهم قومه الذين يخاف عليهم عذاب يوم أليم، وهو يوم الطوفان أو يوم القيامة.

﴿فقال الملأ﴾ أي: أصحاب الغنىٰ والوجاهة، الذين يملؤون العين بزينتهم وشارتهم.

﴿الذين كفروا من قومه﴾ وهو ذم لهم على كفرهم، فلا يعد مدحاً لهم أنهم من أصحاب الغنىٰ والوجاهة؛ لأنهم كفروا بالله تعالى وأعرضوا عن دعوة رسوله عليه السلام.

﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ أي: فكيف تمتاز علينا وتكون نبياً، كأنهم

أرادوا أن يكون ملكاً، ونستشف من قولهم ﴿ما نراك﴾ كبرهم وغرورهم وترفعهم على غيرهم.

﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ أي: أخساؤنا وأدانينا والضعفاء فينا، جمع الأرذل.

﴿بادي الرأي﴾ أي: ظاهر الرأي أو أول الرأي.

والمعنىٰ أن اتباعهم لك شيء عنَّ لهم بديهة من غير روية ونظر، ولو أنهم تفكروا وتريثوا ما اتبعوك.

وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأمور المادية الدنيوية، فمقياس الفضل عندهم هو الغنىٰ وكثرة المال، وعليه يبنون إكرام الناس وإهانتهم.

﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أي: وما نرى لك ولأتباعك فضيلة علينا بعد أن اتبعوك، فهم لا يزالون أراذل فقراء.

﴿بل نظنكم كاذبين﴾ [٢٧] أي: وعبروا عن تكذيبهم لنوح عليه السلام والمؤمنين بالظن، تظاهراً بالتأني وعدم المسارعة إلى الجزم والقطع، واحترازاً عن الوقوع فيما اتهموا به المؤمنين، وهو المسارعة إلى تصديق دعوة نوح عليه السلام، من غير تفكير ونظر.

واستمع عليه السلام إلى جميع أقوالهم، وتركهم يدلون بكل ما لديهم، مما يدل على ثقته عليه السلام بنفسه، وعلمه بقوة حججه، ولما انتهىٰ القوم من كلامهم، بادر عليه السلام إلى ردها وبيان ضعفها وتناقضها:

﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي: أخبروني إن كنت على برهان واضح يشهد بصدق دعوتي.

﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ أي: نعمة عظيمة من عنده، وهي النبوة.

﴿فعميت عليكم﴾ أي: خفيت البينة عليكم فلم تهدكم.

والبينة كما تكون بصيرة ومبصرة، تكون في حال خفائها وعدم فهمها عمياء، كالأعمىٰ لا يهدي ولا يهتدي، وبينة نوح عليه السلام ظاهرة واضحة، ومع ذلك فقد خفيت عليهم، فهو تعريض بضعف مداركهم وقلة فهمهم.

﴿أنلزمكموها﴾ أي: أنكرهكم عليها.

﴿وأنتم لها كارهون﴾ [٢٨] أي: وأنتم معرضون عنها، لا تتدبرون فيها ولا تحاولون فهمها.

ولا يخفىٰ ما في كلامه عليه السلام من رد على انتقادهم للمؤمنين، بأنهم بادروا إلى تصديق نوح دون نظر وتفكير، فدعوته عليه السلام تقوم على التفكر والنظر والدليل والبرهان، ولا تقوم على التقليد الأعمىٰ، ولا على الإجبار والإكراه.

﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً﴾ أي: لا أطلب منكم مالاً تؤدونه إلي في مقابل إيمانكم واتباعكم، فدعوتي منزهة عن المطالب الدنيوية والمنافع المادية.

﴿إن أجري إلا على الله﴾ أي: ما أجري إلا من الله تعالى؛ لأنها دعوة خالصة له جل جلاله.

والجدير بالذكر أن جميع الأنبياء عليهم السلام أعلنوا مثل ذلك، فبرؤوا دعوتهم عن أي كسب ونفع دنيوي، حتىٰ نبينا عليه الصلاة والسلام أمره ربه أن يعلن ذلك لقومه: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربىٰ﴾[١]. وهذا ما يجب على الدعاة أن يلتزموا به، فينزهوا دعوتهم عن كل غرض دنيوي، ويجعلوها نقية خالصة لله تعالى.

﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ وهو جواب عما أشاروا إليه بقولهم ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ فكأنهم قالوا له: إن اتباع الضعفاء والفقراء لك مانع لنا عن اتباعك.

---

(١) الشورى: الآية ٢٣.

ولما طلب كبار مشركي قريش من النبي ﷺ أن يطرد ضعفاء المؤمنين والفقراء، ويبعدهم عن مجلسه حتىٰ يأتوا إليه ويستمعوا منه، أنزل سبحانه رداً على طلبهم قوله الكريم: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾[1]، وقوله أيضاً: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾[2].

فمواقف العناد والجحود عند الأمم الكافرة متشابهة، ولو اختلفت الأزمنة والأمكنة، كما أن مواقف الأنبياء عليهم السلام وثباتهم على مبادئهم متشابهة أيضاً؛ لأن دعوتهم واحدة.

﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ أي: إنهم مسؤولون عن أعمالهم أمام الله تعالى، فهو الذي يحاسبهم، وهو عليم بصدق إيمانهم وصلاح أعمالهم، فكيف أطردهم؟! وهو كقوله أيضاً: ﴿قال وما علمي بما كانوا يعملون. إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون. وما أنا بطارد المؤمنين. إن أنا إلا نذير مبين﴾[3].

﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ [٢٩] أي: تجهلون أن الإنسان مسؤول عن أعماله يوم القيامة، وقد يكون المراد من وصفهم بالجهل وصفهم بالسفه والطيش والحماقة، والمعنىٰ على ذلك: ولكنكم قوم تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة، وجعل فقرهم وضعفهم رذالة.

﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾ أي: لا أحد يمنعني

---

(١) الأنعام: الآية ٥٢.

(٢) الكهف: الآية ٢٨.

(٣) الشعراء: الآيات ١١٢ ـ ١١٥.

ويحميني من عذاب الله تعالى إن خالفت أمره وطردت المؤمنين، وهذا إقرار ضمني بالمسؤولية أمام الله تعالىٰ.

﴿أفلا تذكرون﴾ [٣٠] أي: أفلا تتعظون.

﴿ولا أقول لكم﴾ أي: حين أدعي النبوة.

﴿عندي خزائن الله﴾ أي: رزقه وأمواله، حتىٰ تستدلوا بعدمها على كذبي، وهو رد على قولهم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾ فالنبوة لا تنال بكثرة المال، وهي أعز من الدنيا بما فيها. وقد يكون مراده عليه السلام: ليس عندي خزائن الله فأعطيكم منها إن آمنتم، فالإيمان يجب أن يكون خالصاً لله تعالى، منزهاً عن أي نفع دنيوي.

﴿ولا أعلم الغيب﴾ أي: ولا أدعي علم الغيب، حتىٰ أعلم ما في نفوس أتباعي، وما تخفيه ضمائرهم.

﴿ولا أقول إني ملك﴾ وهو رد على قولهم: ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾، وهو ما أمر الله النبي ﷺ أن يقوله لقومه: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمىٰ والبصير أفلا تتفكرون﴾[1].

﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً﴾ أي: لا أقول لفقراء المؤمنين الذين تحتقرهم أعينكم لن يؤتيهم الله في الدنيا والآخرة خيراً، حتىٰ لا يكونوا أفضل منكم، فالله سبحانه سيؤتيهم خيراً عظيماً في الدارين.

﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ أي: من صدق الاعتقاد أو عدمه.

﴿إني إذاً لمن الظالمين﴾ [٣١] أي: إن قلت شيئاً من ذلك، فللنبي حدوده المرسومة بواسطة الوحي المنزل عليه، لا يستطيع تجاوزها، وإلا عرض نفسه للمسؤولية والجزاء.

---

(١) الأنعام: الآية ٥٠.

هكذا نقض عليه السلام بقوة بيانه وعلو برهانه، أقوال الملأ من قومه، وبين سقوطها وتهافتها، مما جعلهم ينصرفون عن مجادلته، ويقبلون على معاندته وتهديده:

﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ [٣٢] وظهر بقولهم هذا جهلهم أيضاً؛ لأن العذاب بيد الله تعالى، لا بيد نوح عليه السلام، ولهذا رد عليهم: ﴿قال إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ فالعذاب منوط بمشيئة تعالى وحده.

﴿وما أنتم بمعجزين﴾ [٣٣] أي: وما أنتم بقادرين على الفرار منه إن أتاكم.

ثم أضاف عليه السلام، يبين تمام مشيئته تعالى ونفاذها في جميع المكونات:

﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي: إن كان الله يريد أن يضلكم فلا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم؛ لأن إرادته تعالى فوق إرادتي.

﴿هو ربكم﴾ أي: هو خالقكم ومالك أمركم، ومشيئته نافذة فيكم.

﴿وإليه ترجعون﴾ [٣٤] ليحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم.

وبعد أن نقلت الآيات هذه المحاورة، التي حدثت قبل آلاف السنين بين نوح والملأ من قومه، توقفت قليلاً عن متابعة عرض أحداث القصة، لتؤكد صدق القرآن الكريم، وأنه كلام الله تعالى، أنزل على رسوله ﷺ، ولترد على اتهام المشركين له عليه السلام بافترائه، وتقرر مسؤوليته إن افتراه، فهي نقاط هامة بارزة في هذه المحاورة:

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: أبعد هذه الأخبار المغيبة التي لا يعلمها أحد إلا الله تعالىٰ، يدعي المشركون أن محمداً افترى القرآن الكريم؟!

﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي﴾ أي: إن صح أني افتريته فعلي عقوبة إجرامي.

﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ [٣٥] أي: وأنا بريء من إجرامكم في اتهامي بالافتراء، وغير مسؤول عن ذنوبكم وآثامكم، فكل إنسان مسؤول مسؤولية شخصية عن أعماله أمام ربه عز وجل.

سفينة نـوح

واستأنفت الآيات بعد هذه الوقفة القصيرة، عرض قصة نوح عليه السلام مع قومه:

﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ وهذا إقناط له عليه السلام من إيمانهم، وإعلام له بأنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه، وجاء هذا الوحي بعد أن لبث فيهم مدة طويلة وهو يدعوهم ويحتمل أذاهم، ويصبر على غلظتهم وجفوتهم، قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾[١].

وبعد أن أقنطه تعالى من إيمانهم، دعا نوح عليهم، وهي الدعوة التي حكاها عنه تعالى في قوله: ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾.[٢]

﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ [٣٦] أي: لا تحزن بما كانوا يواجهونك به من العناد والأذى والتكذيب، في هذه المدة الطويلة، فقد اقترب وقت الانتقام منهم.

ثم أمره تعالى أن يهيىء أسباب النجاة من الغرق ويصنع السفينة،

---

(١) العنكبوت: الآية ١٤.

(٢) نوح: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

وهذا يدل على مشروعية الأخذ بالأسباب، وأن الأسباب والمسببات منه جل وعلا.

﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾ أي: اصنع السفينة محفوظاً برعايتنا وحمايتنا، والفلك اسم يدل على المفرد والجمع.

﴿ووحينا﴾ أي: واصنعها على حسب ما نوحي إليك ونعلمك، فقد كان عليه السلام يجهل كيفية صنعها، فأوحى سبحانه إليه ذلك.

﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أي: لا تراجعني فيهم ولا تسألني رفع العذاب عنهم.

﴿إنهم مغرقون﴾ [٣٧] أي: محكوم عليهم بالإغراق.

هكذا قضىٰ الحق سبحانه قضاءه المبرم، فلا راد له.

﴿ويصنع الفلك﴾ أي: وشرع عليه السلام يصنع الفلك بحسب توجيهات الوحي.

ودل التعبير بالمضارع على ملازمته على صنعها واستمراره عليه بدأب وجد.

﴿وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ أي: استهزؤوا به، إما لكونهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والهدف منها،أو لأنه كان يصنعها فوق أرض يابسة بعيدة عن الماء، وقد يكون استهزاؤهم استبعاداً لوقوع العذاب الذي توعدهم به.

ولم يتأثر عليه السلام باستهزائهم، ولم يشغله عن متابعة عمله، وكان يجيبهم جواب الواثق من ربه جل وعلا:

﴿قال إن تسخروا منا﴾ أي: إن تسخروا منا ونحن نعمل في صنع السفينة، ونسعىٰ في تحصيل أسباب النجاة من الغرق.

ودل قوله على أن المؤمنين كانوا يساعدونه في صنع السفينة.

﴿فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾ [٣٨] أي: فإنا نقابل سخريتكم بمثلها، بسبب جهلكم وغروركم، أو إنا نسخر منكم عندما ينزل العذاب بكم.

﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي: فسوف تعلمون علم المشاهدة واليقين، من يصيبه عذاب فيه ذل ومهانة، وهو الغرق في الدنيا.

﴿ويحل عليه عذاب مقيم﴾ [٣٩] أي: يحل عليه عذاب دائم أبداً لا ينقطع، وهو عذاب النار يوم القيامة.

ولا بد أن تكون السفينة كبيرة ضخمة، بذل عليه السلام مع المؤمنين، جهداً كبيراً متواصلاً حتىٰ أكملوا صنعها، ولا شك أنها كانت مصنوعة على أعلا وأكمل المواصفات العلمية الفنية لصناعة السفن، فهي أفضل بكثير من السفن التي توصل إليها الإنسان المعاصر، لأنها صنعت بوحي من العليم الحكيم الخبير جل وعلا، الذي هدى الإنسان إلى كل العلوم والفنون التي توصل إليها.

وانتظر عليه السلام بعد أن فرغ من صنع السفينة، الأجل الموعود الذي جعله له الله تعالى علامة، وهي نبع الماء بقوة من التنور.

وهو تنور الخبز الذي كان نوح عليه السلام ينضج فيه الخبز، وقد يكون المراد الجنس، فيشمل تنور نوح وكل تنور في الأرض، وقد يراد بالتنور وجه الأرض[١].

﴿حتىٰ إذا جاء أمرنا﴾ وهو نزول العذاب بهم.

﴿وفار التنور﴾ أي: نبع منه الماء وارتفع بشدة وغزارة.

وهو دليل على كمال قدرة الله تعالى، إذ أخرج الماء من موضع وجود النار.

---

(١) انظر: روح المعاني ١٢/٥٢.

شحن السفينة وتحميلها

وعلم نوح عليه السلام أن وقت الطوفان قد أزف، فأسرع إلى السفينة يحمل فيها ما أمره سبحانه بحمله، وهو حمل عجيب شحنه فيها عليه السلام بقدرته تعالى ومشيئته وأمره.

﴿قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين﴾ أي: احمل في السفينة من كل نوع من أنواع المخلوقات الأرضية البرية زوجين ذكراً وأنثى.

فالزوج: الفرد الذي له مشاكل من نوعه، فالذكر زوج للأنثىٰ، وهي زوج للذكر، كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾[1] وقرىء على الإضافة: ﴿من كل زوجين اثنين﴾.

ولا بد أنه تعالى سخر هذه الأزواج لنوح عليه السلام، فجاءته منقادة طائعة، إذ هو سبحانه الآمر والمعين على تنفيذ الأمر، والمعونة تأتي على قدر المؤونة، فلا حاجة بنا إلى الخوض بكيفية الشحن كما فعل المفسرون، كما لا حاجة أيضاً إلى تقييد عموم الآية بقدرة نوح واستطاعته، كما رأىٰ سيد قطب رحمه الله حين قال: ﴿من كل زوجين اثنين﴾ مما يملك نوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء، وما وراء ذلك خبط عشواء[2].

إن الآية مطلقة تدل على العموم، ويؤكد العموم قراءة الجمهور بالإضافة، كما ذكرنا ﴿من كلِ زوجين اثنين﴾ وكل إذا أضيفت إلىٰ نكرة عمت، وتخصيص العموم من دون مخصص هو خبط عشواء، ويدل العموم على أن الطوفان عم الأرض اليابسة كلها في ذلك العصر، فالأمر معجز

---

(١) النساء: الآية ١.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/٥٤٨.

خارق لقـدرات البشر، أجراه جل وعلا على يد نبيه نوح عليه السلام، كما أجرى كثيراً من المعجزات وخوارق العادات على يد غيره من الأنبياء عليهم السلام، فشحن السفينة بأزواج من جميع الأنواع الأرضية البرية، أمر معجز تم بأمر الله ومشيئته وقدرته، وقد سماه الله آية، أي معجزة في قوله: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾[1]، كما سمى سبحانه صنع السفينة نفسها آية في قوله الكريم: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾[2]، وكأنها أول سفينة صنعها الإنسان في التاريخ.

﴿وأهلك﴾ أي: واحمل في السفينة أهلك، وهم أهل بيته من النساء والأولاد.

﴿إلا من سبق عليه القول﴾ أي: إلا من سبق عليه قضاء الله تعالى في الهلاك والغرق، لأنه اختار الكفر، وهم زوجته وأحد أولاده، قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾[3] وكانت خيانتهما بالكفر والمخالفة في الدين.

وقال أيضاً: ﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾[4].

﴿ومن آمن﴾ أي: واحمل المؤمنين أيضاً، فقد وعد سبحانه بنجاة الأنبياء، ونجاة أتباعهم من المؤمنين، كما في قوله: ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين﴾[5].

---

(١) يس: الآية ٤١.
(٢) العنكبوت: الآية ١٥.
(٣) التحريم: الآية ١٠.
(٤) المؤمنون: الآية ٢٧.
(٥) يونس: الآية ١٠٣.

﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ [٤٠] أي: ما آمن إلا عدد قليل من قومه، مع أنه عليه السلام لبث يدعوهم مدة طويلة امتدت نحو ألف عام، كما مر معنا.

ولهذا الخبر دلالته، فمن أجل هذا العدد القليل المؤمن، أجرى الله الطوفان الذي دمر كل شيء في الأرض من حياة وعمران، وجعل وراثة الأرض وعمرانها بعد ذلك لهذا العدد القليل المؤمن، إن البذرة المسلمة في الأرض شيء عظيم في ميزان الله تعالىٰ[1].

الطوفان

وأمرهم عليه السلام أن يركبوا في السفينة على اسمه تعالى:

﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها﴾ أي: وقت جريها وإرسائها، فحركتها وثباتها بمشيئته تعالى وقدرته، فهي في رعايته وحماه.

﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ [٤١] يغفر للمؤمنين ما سلف من معاصيهم، ويرحمهم بتيسير سبل نجاتهم.

وفتح سبحانه بقدرته ومشيئته أبواب السماء بماء منهمر، وفجر الأرض عيوناً، فتدفق الماء من كل جزء من أجزائها، من جبالها ووديانها وسهولها، ومن بين صخورها وحبات رمالها وترابها، قال تعالى: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقىٰ الماء على أمر قد قدر﴾[2].

والتقىٰ ماء السماء وماء الأرض على أمر قدره الله تعالى، وهو إهلاك الكفرة بالطوفان الذي عم الأرض كلها.

وارتفع الماء فوق اليابسة، وطفت السفينة فوق الماء وتحركت بقدرة

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/٥٧١.
(٢) القمر: الآيتان ١١ ـ ١٢.

الله ومشيئته، الذي قال: ﴿تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾[1].

وثارت العواصف وهاجت الأمواج وارتفعت حتىٰ غدت كالجبال العالية، وجرت السفينة بعناية الله بين هذه الأمواج الهائلة:

﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ أي: تشبه الجبال في ضخامتها وعلوها وارتفاعها، ومن كابد البحر حين ارتجاجه وهيجان أمواجه، ورآه ثائراً مزبداً مزمجراً، يدرك دقة هذا التشبيه وموضوعيته، ومع ذلك ظلت السفينة تجري بهم بمشيئته تعالى ورعايته، وتحت كنفه وحراسته، كما قال تعالى: ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾[2] وقال أيضاً: ﴿وأنا لما طغىٰ الماء حملناكم في الجارية﴾[3].

الوالد المشفق والولد المغرور

وفي هذا الوقت العصيب، رأى نوح عليه السلام أحد أولاده خارج السفينة، مذعوراً خائفاً، وهو يشتد راكضاً فراراً من الغرق، مع غيره من الفارين المتجهين إلى الأماكن المرتفعة والقمم العالية، فثارت في صدره مشاعر الأبوة الإنسانية الحانية، وهي لا شك عند الأنبياء أقوى وأكمل من غيرهم؛ لأن الأنبياء عليهم السلام أكمل الناس في جميع الصفات الإنسانية المادية والمعنوية[4].

واندفع النبي الوالد ينادي ولده بصوت تغلب عليه شفقة الأبوة وحنانها:

﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل﴾ أي: كان عند ركوب السفينة في

---

(١) القمر: الآية ١٤.

(٢) القمر: الآيتان ١٣ ـ ١٤.

(٣) الحاقة: الآية ١١.

(٤) انظر: الأنساب والأولاد للمؤلف.

مكان عزل به نفسه عن أبيه وأخوته والمؤمنين، فلم يكن بين ركابها، وقيل: في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم، ولذلك دعاه إلى السفينة[1].

﴿يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ [٤٢] أي: اركب معنا في السفينة، وكن مع المؤمنين ولا تكن مع الكافرين فتكون من الهالكين.

وغلب على الولد الكافر الجهل والطيش والغرور، فرفض دعوة أبيه الحانية المشفقة.

﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ أي: سألجأ إلى جبل مرتفع يمنعني من الغرق في الماء، قال ذلك ظناً منه أن هذا الطوفان كغيره من السيول المعتادة، التي يعتصم منها بالأماكن المرتفعة، فبين له نوح عليه السلام أن الأمر اليوم يختلف، وأنه قضاء الله المبرم: ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ أي: لا مانع اليوم من الطوفان الذي أمر به جل وعلا، وتعلقت به إرادته وسبق به علمه، فلا بد أن يدركهم الطوفان، ولو كانوا في قمم الجبال.

﴿إلا من رحم﴾ أي: إلا من أراد الله رحمته ونجاته، وهم الذين ركبوا في السفينة، نوح ومن معه من المؤمنين.

وانقطع الحوار بين الوالد المشفق، وبين الولد العاق المغرور، قطعه الموج المرتفع الهادر، مما يدل على قوة الطوفان وسرعته وشدته.

﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ [٤٣] أي: كان الولد من الهالكين.

ففي لحظة واحدة تغير المشهد، وابتلع الموج الهادر كل شيء، وإننا - كما قال سيد قطب رحمه الله - بعد آلاف السنين، لنمسك أنفاسنا ونحن نتابع السياق، والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد، وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء، وابنه الفتى

---

(١) روح المعاني: ١٢/٥٩.

المغرور يأبىٰ إجابة الدعاء، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة، وينتهي كل شيء وكأن لم يكن دعاء ولا جواب[1].

انتهاء الطوفان وعودة التوازن

ووقع قضاءه تعالى وتم أمره، ثم بأمره تعالى هدأت العاصفة أيضاً، وتوقف الماء المنهمر من السماء والمتفجر من الأرض، وخيم السكون.

﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ أي: اشربي ماءك الذي خرج منك للطوفان، ورديه إلى جوفك، دون المياه المعهودة التي كانت على سطحك في الأنهار والعيون والبحيرات وغيرها، فلا بد أن يعود التوازن الذي قدره العليم الحكيم إلى الأرض، والذي دل عليه قوله تعالى: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾[2].

ولا شك أن قدرته سبحانه تتعلق بذرات الموجودات مهما دقت، وأن مشيئته تعالى نافذة فيها أيضاً، وأن علمه وسع كل شيء، وهو يعلم مكاييل المياه وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، فلا يعسر عليه تعالى التمييز بين مياه الطوفان، وبين غيرها من المياه التي كانت على سطح الأرض، ألا ترى أنه عز وجل يميز في كل لحظة بقدرته وعلمه، بين المياه المالحة والعذبة في الأرض، فلا تطغىٰ إحداهما على الأخرى، كما أخبر عن ذلك بقوله: ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾[3].

﴿ويا سماء أقلعي﴾ أي: أمسكي وتوقفي عن إرسال المطر.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/٥٤٩.

(٢) الحجر: الآيات ١٩ ـ ٢١.

(٣) الفرقان: الآية ٥٣.

وتم مراده تعالى مباشرة ودون تأخير، فكل المكونات من سماء وأرض وأجرام وذرات منقادة لأمره ومشيئته جل جلاله.

﴿وغيض الماء﴾ أي: نقص الماء وشـرع بالتراجع، رجع ماء الأرض إلى موطنه في جوفها، وقد كشف علم طبقات الأرض عن وجود كميات هائلة من المياه في جوفها.

وارتفع ماء السماء بالتبخر المعهود، أو بالوسيلة التي قدرها العليم الحكيم.

﴿وقضي الأمر﴾ أي: تم الأمر الإلهي ووقع مراده جل وعلا بإهلاك الكافرين.

﴿واستوت على الجودي﴾ أي: رست السفينة على جبل الجودي، وهو جبل في شمال العراق.

﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ [٤٤] أي: هلاكاً للقوم الذين ظلموا أنفسهم بعنادهم وكفرهم.

ولم يصرح سبحانه بمن أغاض الماء، ولا بمن قضىٰ الأمر وسوى السفينة وقال بعداً، كما لم يصرح بقائل: يا أرض ويا سماء، سلوكاً في كل واحد لسبيل الكناية، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكون قاهر، وأن فاعلها واحد لا يشارك في فعله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، ولا أن يكون الغائض والقاضي والمسوي غيره[١].

المسؤولية الشخصية

ويبدو أن نوحاً عليه السلام ما عرف أن ولده أصبح من الهالكين، بعد أن حال الموج بينهما، كما أنه ما كان يعلم أن ولده كان كافراً، وبقيت أمواج القلق والخوف على ولده تتقاذفه، كما كانت أمواج الطوفان تتقاذف

---

(١) تفسير النسفي ١/١٩٠.

السفينة، ولما سكنت العاصفة وأقلعت السماء وغيض الماء، أخذ ينظر حوله في الآفاق البعيدة والقمم العالية، التي بدأت تظهر، لعله يرى ولده، ثم توجه إلى الله تعالى ضارعاً: ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق﴾ أي: إن وعدك حق ثابت لا خلف فيه، ولا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، وإن ابني من أهلي.

﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ [٤٥] أي: أعلم الحكام وأعدلهم.

﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ أي: إنه لا يعد من أهلك، أوليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم في السفينة.

وعلى التقديرين لم يكن ولده من الذين وعد الله بإنجائهم، وبين سبحانه سبب ذلك فقال: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ أي: إنه ذو عمل غير صالح، فجعل العامل نفس العمل مبالغة، فقد كان كافراً، ونجاة من نجا بسبب إيمانه وصلاحه.

وقرابة النسب تنقطع بالموت على الكفر، ولهذا لا يتوارثان، وقرابة الدين أقوى من قرابة النسب، ولهذا لا تنقطع بالموت، بل تبقى وتستمر، وينفع الله تعالى الميت المسلم بصلاة المسلمين عليه ودعائهم واستغفارهم له، ويجمع الله بينهم بفضله ورحمته في الجنة، بعد أن يلحق المقصر منهم بالسابق، كما في قوله سبحانه:

﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين﴾[1].

﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ أي: لا تسألن ما ليس لك به علم بجواز مسألته، وفيه دليل على أن نوحاً عليه السلام كان يجهل كفر ولده.

﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ [٤٦] أي: إني أحذرك بعد أن عرفت حقيقة الأمر، أن تكون من العاصين.

---

(١) الطور: الآية ٢١.

فلا تدل هذه الموعظة على أن نوحاً عليه السلام قارف ذنباً، بل هي تأديب له وتحذير من فعله في المستقبل، ولهذا بادر عليه السلام إلى اللجوء إلى الله تعالى، والاستعاذة به ليعصمه من مقارفة أي ذنب، وأظهر بهذا الدعاء احتياجه وافتقاره إلى الله تعالى، وكمال خضوعه له:

﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾ أي: أعوذ بك أن أسألك ما لا علم لي بصحته؛ تأدباً بأدبك واتعاظاً بموعظتك.

﴿وإلا تغفر لي﴾ أي: ما سبق مني، وهذا يدل على كماله عليه السلام، وعظيم خشيته لله تعالى، حتىٰ رأى أن ما سبق منه ذنب ينبغي عليه أن يستغفر الله منه.

﴿وترحمني﴾ أي: بالعصمة والفضل والإحسان.

﴿أكن من الخاسرين﴾ [٤٧] أي: الهالكين.

والجدير بالذكر أن خبر نوح مع ولده لم يذكر إلا في سورة هود، مع أنه سبحانه ذكر قصة نوح في عدة سور، وخصص لها في المفصل سورة كاملة سميت باسمه، وقد دلت هذه الحلقة من قصة نوح عليه السلام، على أن الإنسان مسؤول عن عمله مسؤولية شخصية فردية، فلا يسأل أحد عن ذنب غيره مهما كانت القرابة بينهما، فمن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه، وكل إنسان مكلف مسؤول عن كسبه واختياره، كما في قوله تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفىٰ بنفسك اليوم عليك حسيباً. من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتىٰ نبعث رسولاً﴾[١].

ولعل هذا سر انفراد سورة هود بهذه الحلقة الجديدة من قصة نوح عليه السلام مع قومه، فهي تتفق تماماً مع موضوع المسؤولية والجزاء، الذي تدور آيات السورة في فلكه.

---

(١) الإسراء: الآيات ١٣ ـ ١٥.

البشرية من جديد

﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك﴾ أي: انزل من السفينة بأمن وسلام من الله تعالى وخيرات نامية تفضل بها عليك.

﴿وعلى أمم ممن معك﴾ أي: وتفضل سبحانه بها أيضاً على أمم ممن معك في السفينة.

فالبشرية الجديدة تتشعب منهم، وهم يحملون في أصلابهم نطف النسل الجديد، الذي سيمتد وجوده إلى يوم القيامة، إذ قدر سبحانه أن يكون نوح عليه السلام هو الوالد الثاني للبشرية بعد آدم عليه السلام، فمن أولاده الذين كانوا معه في السفينة، تناسل البشر وانتشروا في الأرض، وأصبحوا بعد ذلك قبائل وشعوباً، وأما الآخرون من المؤمنين الذين كانوا معه في السفينة، فلم يجعل الله تعالى ـ بحكمته وقدرته ـ لهم ولداً ولا نسلاً، وأخبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على نوح في العالمين﴾[1].

وهكذا بدأت عمارة الأرض بالمؤمنين الموحدين، كما بدأت في فجرها الأول في عهد آدم عليه السلام، الذي كان رسولاً إلى أولاده، فالكفر طارىء على البشرية، والله سبحانه خلق البشر موحدين وفطرهم على ذلك، ثم طرأ عليهم الكفر بسبب تزيين الشيطان ووسوسته، كما مر معنا في الحديث الشريف: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله:

﴿وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ [٤٨] أي: وسيكون ممن معك في السفينة أمم سيمتعهم الله تعالى مدة حياتهم في الدنيا، ثم يكون مصيرهم بسبب كفرهم وفجورهم إلى العذاب الأليم يوم القيامة.

---

(١) الصافات: الآيات ٧٥ ـ ٧٩.

فقد عادت البشرية الجديدة إلى التوحيد، الذي كانوا عليه في عهد آدم عليه السلام، وهبطوا من السفينة مؤمنين موحدين، ثم أخرج الله منهم نسلاً انقسموا إلى فريقين، فريق مؤمن بالله وبمسؤوليته أمامه يوم القيامة، وهم أمم السلام والبركات والخيرات، وفريق آخر كافر بالله، جاحد للمسؤولية والجزاء، وهم أمم المتاع والعذاب، وكان محمد بن كعب القرظي رحمه الله عندما يقرأ هذه الآية يقول: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة[1].

وهذه الحقيقة، حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي عقيدة الإسلام لله تعالى وحده، تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم علماء الأديان المقارنة، وغيرهم من التطويريين ، الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة، سبقته أطوار شتىٰ من التعدد للآلهة، ومن تأليه القوى الطبيعية والأرواح والشموس والكواكب... إلى آخر ما تخبط به هذه البحوث، التي قامت منذ بدايتها على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة، تهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي، وتزعم أن الأديان من صنع البشر، وأنها تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان[2].

وأوردت الآيات تعقيباً واحداً على قصة نوح عليه السلام، بخطاب وجهته إلى النبي ﷺ، تصبره وتثبته في مواجهة عناد قومه وأذاهم:

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك﴾ فهي من التاريخ البعيد السحيق الموغل في القدم، والتي ما كان النبي ﷺ ولا قومه يعلمونها، ولا يزال الجهل بها مستمراً حتىٰ عصرنا الحاضر، فهي من العصور التاريخية المظلمة، التي لم يتمكن المؤرخون

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٤٤٨.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٥٥٥.

من إلقاء أي ضوء كاشف عليها، ولهذا أطلقوا عليها اسم عصور ما قبل التاريخ.

﴿من قبل هذا﴾ أي: من قبل الوقت الذي أوحى الله فيه هذه الآيات إليك.

﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ [٤٩] أي: اصبر على تبليغ الرسالة كما صبر نوح، فإن النصر والفوز للمتقين، كما كان لنوح عليه السلام والمؤمنين معه.

قصة هود وقومه

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ أي: أرسلنا إلى عاد أخاهم في النسب هوداً عليه السلام. وكانوا أمة تسكن الأحقاف في جنوب الجزيرة العربية، ما بين عمان إلى حضرموت، ولعلها الآن منطقة صحراء الربع الخالي، قال تعالى: ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾(١).

﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: اعبدوا الله وحده وأطيعوه، وكانوا مشركين يعبدون الأصنام.

﴿ما لكم من إله غيره﴾ أي: ما لكم معبود يستحق العبادة غير الله تعالى.

﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ [٥٠] أي: ما أنتم بجعل الألوهية لغيره تعالى إلا كاذبون.

ثم أعلن عليه السلام براءة دعوته وترفعها عن أي مطلب دنيوي ونفع مادي، فقال:

﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني﴾ أي:

---

(١) الأحقاف: الآية ٢١.

ما أجري إلا على الذي خلقني؛ لأن دعوتي خالصة له جل وعلا، فهي منه وإليه.

وقد مر معنا أن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أعلنوا مثل هذا الإعلان، عند قول نوح: ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله﴾.

ويبدو أن هوداً عليه السلام أعلن ذلك رداً على اتهام قومه له أو تلميحهم له، بأنه يريد من دعوته هذه أن يحقق لنفسه بعض المكاسب المادية، ولهذا قال معقباً:

﴿أفلا تعقلون﴾ [٥١] أي: أفلا تعقلون أنني لا أريد من دعوتي هذه أي كسب دنيوي.

﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ أي: اسألوا ربكم المغفرة لما سلف من كفركم ومعاصيكم، بالإيمان به وعبادته وحده.

﴿ثم توبوا إليه﴾ أي: توبوا إلى الله بترك الكفر والمعاصي والندم عليها.

وقد مر معنا في أول السورة أن نبينا عليه الصلاة والسلام، قال مثل ذلك لقومه عندما كان يدعوهم: ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله﴾. فقد حثهم النبي ﷺ على قبول دعوته والاستغفار والتوبة، وأطمعهم بالمتاع الحسن في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة، كما فعل هود عليه السلام، الذي قال لقومه:

﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي: ينزل سبحانه المطر عليكم متتابعاً بالخير الكثير الوفير.

ويبدو أنهم كانوا أهل غنىً وسعة، وأهل زرع وضرع، وقد حبس الله تعالى عنهم المطر بسبب بغيهم وظلمهم وإعراضهم عن دعوة نبيهم عليه

السلام، دل على ذلك قوله تعالى على لسان هود: ﴿أتبنون بكل رِيعٍ آية تعبثون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين. فاتقوا الله وأطيعون. واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون﴾(١).

وأما احتباس المطر فدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾(٢).

فالقوم كانوا يتلهفون على نزول المطر، بسبب احتباسه الطويـل عنهم، ولهذا أطمعهم نبيهم هود عليه السلام به.

﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ أي: يمدكم ربكم بمزيد من أسباب القوة والسعة والغنىٰ، فقد كانوا أقوياء في الأبدان والأموال، وقد أشار عليه السلام إلى قوة أبدانهم في قوله الذي حكاه تعالى عنه: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾(٣).

وقد أبطرتهم قوتهم وجعلتهم يتكبرون على الناس ويظلمونهم، ولهذا قال لهم نبيهم هود:

﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ [٥٢] أي: لا تعرضوا عن دعوة الله وعبادته، مصرين على ما أنتم عليه من ظلم وإجرام، فقد كانوا عتاة أقوياء جبارين، كما مر في قول هود لهم: ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ وقد حكىٰ الله تعالى عنهم من شدة تكبرهم وتجبرهم ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أوَلم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾(٤).

---

(١) الشعراء: الآيات ١٢٨ ـ ١٣٤.
(٢) الأحقاف: الآية ٢٤.
(٣) الأعراف: الآية ٦٩.
(٤) فصلت: الآية ١٥.

فدعوة الأنبياء عليهم السلام دعوة خير وإصلاح للناس، تواجه الظالمين وتردعهم عن ظلمهم وطغيانهم.

﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة﴾ أي: ما جئتنا بحجة تدل على صحة دعوتك، ومعجزة تبين صدق رسالتك.

قالوا ذلك عناداً وتغافلاً عن البينات والحجج التي أيده الله تعالى بها، فما من نبي بعثه الله تعالى إلا أيده بالبينات الدالة على صدقه وصحة نبوته، قال تعالىٰ: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾[1] وفي الحديث الشريف أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2].

﴿وما نحن بتاركي آلهتنا﴾ أي: وما نحن الذين نترك عبادة آلهتنا ونتبع قولك.

﴿عن قولك﴾ أي: صادرين عن قولك

﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ [٥٣] أي: وما نحن لك بمصدقين.

فكلامهم يدل على تكبرهم وتجبرهم، وأنهم مصرون على كفرهم وشركهم، ومتمسكون بأوثانهم وأصنامهم، وقد قابلوا نبيهم هود بهذه المقابلة الجافية الغليظة، التي أظهر الله جفوتها وغلظتها في موضع آخر بقوله: ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾[3] ثم ازدادوا جفوة وغلظة وسوء أدب معه عليه السلام، فقالوا له:

---

(١) إبراهيم: الآية ٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن: (٤٩٨١).

(٣) الأعراف: الآية ٦٦.

﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ أي: لا نقول فيك إلا قولاً واحداً، وهو أن بعض آلهتنا غضب من مقالتك وأصابك بسوء، جنون أو خبل.

براءة وتحدي

فما كان من هود عليه السلام إلا أن واجه جفوتهم وغلظتهم بشجاعة وثقة، فأعلن براءته من كفرهم وشركهم، وتحداهم وتحدى آلهتهم أيضاً أن يقدروا على إيصال أي ضرر إليه:

﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه﴾ [٥٤] أي: إني أشهد الله أني بريء مما تشركون من دونه تعالى، واشهدوا أنتم أيضاً أني بريء من ذلك، وهو إمعان منه عليه السلام في تحديهم وفي التهكم منهم، والاستهانة بقوتهم ووعيدهم.

﴿فكيدوني جميعاً﴾ أي: فكيدوني أنتم وآلهتكم مجتمعين، فإني لا أبالي بكم ولا بهم.

﴿ثم لا تنظرون﴾ [٥٥] أي: لا تمهلوني ولو طرفة عين، وهذا الموقف الشجاع من أعظم المعجزات، فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلاً مفرداً، بين الجم الغفير والجمع الكثير، من عتاة عاد الغلاظ الشداد، وقد خاطبهم وحقرهم وآلهتهم، وهيجهم على مباشرة المضارة، فلم يقدروا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً، كيف لا وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع، واعتصم بحبل متين،[1] حيث قال:

﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾ فهو ربي وربكم شئتم أم أبيتم، وتدل كلماته عليه السلام على شدة ثقته بالله تبارك وتعالى واعتماده عليه.

﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ أي: ما من دابة تدب على

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ١٠٥/٥.

الأرض، إلا هو مالك لها، قادر عليها، فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإرادته وقدرته جل وعلا، فأنتم في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته جل جلاله.

والناصية مقدمة الرأس، والأخذ بالناصية تمثيل للقهر والتمكن، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالقهر والتمكن، من إنسان آخر ذل له وخضع، قالوا: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمن عليه، جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره، فخوطبوا في القرآن بما يعرفون(١).

﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ [٥٦] أي: إنه سبحانه مع كمال قدرته وتمام مشيئته، على عدل وحكمة، لا يظلم أحداً ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل.

أو إنه تعالى لا يضيع عنده معتصم به ومتوكل عليه، ولا يفلت منه ظالم.

﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾ أي: إن تعرضوا عن دعوتي فأنتم المسؤولون عن ذلك أمام ربكم، أما أنا فمسؤول عن تبليغ رسالة ربكم، وقد أبلغتكم هذه الرسالة، وأديت لكم الأمانة.

﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾ أي: وهو سبحانه قادر على أن يهلككم ويستخلف قوماً غيركم. ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ أي: لا تضرونه تعالى بإعراضكم؛ لأنه الغني عنكم، فطاعتكم لا تنفعه، وكفركم وفجوركم لا يضره جل وعلا.

﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ [٥٧] أي: إن ربي رقيب مهيمن على كل شيء، فهو قائم على كل نفس، فلا تخفى عليه أعمالكم، وهو سائلكم عنها ومجازيكم عليها.

---

(١) انظر: تفسير الرازي: ٥/١٠٠.

العذاب الغليظ

﴿ولما جاء أمرنا﴾ أي: بإنزال العذاب بهم، وفي التعبير عنه بالأمر المضاف إلى ضميره جل جلاله، وعن نزوله بالمجيء، ما لا يخفىٰ من التفخيم والتهويل[1].

﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ أي: نجينا هوداً والمؤمنين بفضل منا عليهم. ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ [٥٨] أي: شديد، وهو الريح العقيم، ذكره سبحانه هنا مجملاً، وفصله في مواضع أخرى، كقوله تعالى: ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية﴾[2]. وقوله أيضاً: ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾[3]. وقوله أيضاً: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين﴾[4].

ثم دعت الآيات إلى الاعتبار بقصتهم، والاتعاظ بما حل بهم:

﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم﴾ أي: هذه قصتهم ومصيرهم، كفروا بآيات ربهم عناداً واستكباراً بعد أن استيقنوا صحتها، كما فعل فرعون وقومه، الذين قال تعالى فيهم: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾[5].

﴿وعصوا رسله﴾ أي: عصوا جميع رسل الله تعالى، فعصيان رسولهم هود عليه السلام عصيان لجميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة.

---

(١) تفسير أبي السعود: ١٠٧/٥.
(٢) الحاقة: الآيتان ٧ ـ ٨.
(٣) القمر: الآيات ١٨ ـ ٢٠.
(٤) الأحقاف: الآيتان ٢٤ ـ ٢٥.
(٥) النمل: الآية ١٤.

﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ [٥٩] أي: اتبعوا المتجبرين المعاندين من رؤساء الكفر والضلال. ولا يخلصهم هذا الاتباع من المسؤولية والجزاء يوم القيامة، فكل إنسان مسؤول عن اختياره وكسبه، وإن رؤساء الضلال والكفر يتبرؤون يوم القيامة من أتباعهم، قال تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾[1]. وجزاؤهم يبدأ من الدنيا ويمتد إلى الآخرة، ولهذا قال تعالى:

﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ فهي لعنة ملازمة لهم لا تفارقهم، تتبعهم حيث كانوا وتدور معهم حيث داروا، والمراد منها الإبعاد عن رحمته تعالى، ولا تخفىٰ المقابلة بين اتباعهم لزعمائهم، واتباع اللعنة لهم.

﴿ويوم القيامة﴾ أي: أتبعوا أيضاً يوم القيامة لعنة توصلهم إلى عذاب جهنم.

﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ [٦٠] وهو دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين؛ لتفظيع حالهم والاعتبار بقصتهم.

ويبدو أن وصفهم بقوم هود لتمييزهم من عاد الثانية، إذ يرى بعض المفسرين أنه وجد في التاريخ أمتان سميتا بعاد، وقوم هود هم عاد الأولى، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وأنه أهلك عاداً الأولىٰ﴾[2] والله سبحانه أعلم.

قصة صالح وثمود

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، وهي قبيلة كبيرة كانت تسكن في شمال الجزيرة العربية، في وادي الحجر بين المدينة المنورة وتبوك، قريباً من ساحل البحر الأحمر.

---

(١) البقرة: الآيتان ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) النجم: الآية ٥٠.

وقال لهم الكلمة التي قالها نوح وهود عليهما السلام من قبله:

﴿قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره﴾ وهذا يدل على أن رسالة الأنبياء واحدة.

﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي: هو الله الذي ابتدأ خلقكم من تراب الأرض، فهو وحده المستحق للعبادة.

وإخباره عن هذه الحقيقة دليل على صحة نبوته وصدق رسالته، فما كان الناس في زمنه يعرفونها، وقد أخبر سبحانه عنها في عدد من آيات التنزيل الحكيم، منها قوله الكريم: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾[1] وقوله أيضاً: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة﴾[2].

﴿واستعمركم فيها﴾ أي: وهو أقدركم على عمارتها والتمكن فيها، فلولا أنه تعالى ذلل الأرض لحياة الإنسان، ومهدها له ومكنه من الاستفادة من خيراتها، ما استطاع الإنسان أن يعيش عليها، فكلمة نبي الله صالح تذكير لقومه بفضل الله تعالى عليهم، فقد يسر لهم بناء القصور الفخمة والبيوت الكبيرة، وقد استفادوا من الجبال المحيطة بهم، فقطعوا صخورها ونحتوها، وبنوا بها بيوتهم وقصورهم، كما حكىٰ سبحانه ذلك عنه في قوله الكريم: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عـاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[3].

﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾ أي: اسألوه أن يغفر لكم ذنوبكم، ثم توبوا إليه بترك الكفر والمعاصي والندم عليها، ومر معنا أن نوحاً وهوداً عليهما السلام أمرا قومهما بالاستغفار والتوبة، كما فعل صالح عليه السلام.

---

(١) المؤمنون: الآية ١٢.
(٢) الحج: الآية ٥.
(٣) الأعراف: الآية ٧٤.

﴿إن ربي قريب﴾ أي: يسمعكم ويبصركم ويعلم جميع أحوالكم، ورحمته أيضاً قريبة، قال تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾[1].

﴿مجيب﴾ [٦١] أي: لمن دعاه وسأله، كما قال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾[2].

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾ أي: قال الملأ من قومه: يا صالح كانت لك قبل هذا الكلام مكانة ووجاهة بيننا، وقد انقطع الآن رجاؤنا فيك.

ويبدو أن صالحاً عليه السلام كان معروفاً بينهم بسداد الرأي وحسن المشورة، فكانوا يرجعون إليه في كثير من أمورهم.

﴿أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا﴾ أي: من الأصنام والأوثان، ودل سؤالهم على إنكارهم وتعجبهم، وأنهم لا حجة لهم في عبادة الأوثان سوى تقليد آبائهم تقليداً أعمىٰ.

﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾ [٦٢] أي: وإننا نشك في صحة دعوتك وغير مطمئنين إليها.

فالمريب: الموقع في الريبة، وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة.

﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة﴾ أي: أخبروني إن كنت على حجة وبصيرة من ربي وأكرمني بالنبوة.

وهذه الأمور وإن كانت محققة الوقوع، ولكنها صدرت بكلمة الشك، اعتباراً لحال المخاطبين ورعاية لحسن المحاورة، لاستنزالهم عن المكابرة[3].

---

(١) الأعراف: الآية ٥٦.

(٢) البقرة: الآية ١٨٦.

(٣) تفسير أبي السعود: ٥/١١٠.

﴿فمن ينصرني من الله إن عصيته﴾ أي: فمن ينجيني من عذاب الله تعالى إن عصيته بترك تبليغ الرسالة التي كلفني بها، فأنا مسؤول عن التبليغ، كما أنكم مسؤولون عن قبولهـا والانقياد لها.

ويلاحظ التشابه في كثير من نقاط الحوار، بين الأنبياء والأمم الكافرة التي أرسلوا إليها، مع اختلاف الزمان والمكان، كما يلاحظ اهتمام الأنبياء بإبراز مسؤوليتهم أمام الله تعالى عن تبليغ الرسالة، ومسؤولية الأمم عن قبولها والالتزام بها.

﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾ [٦٣] أي: فما تزيدونني بما تقولون سوى أن أصفكم بالخسران، وأقول لكم إنكم الخاسرون.

أولا تفيدونني إن أطعتكم وتابعتكم غير الخسران، فكيف أترك دعوة ربي ورحمته، وأسير وراءكم في طريق الخسران والضياع.

﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ أي: هذه الناقة التي خلقها الله تعالى على غير مألوف الناس وعادتهم، معجزة تدل على صدق رسالتي وصحة نبوتي.

أضيفت الناقة إليه تعالى إضافة تشريف؛ لأنه تعالى خلقها دون سابق أسباب، لتكون معجزة، فهي لهم معجزة تدلهم على صدق نبيهم صالح، كما أنها كانت تدر عليهم لبناً يكفيهم كلهم، ولهذا كانت عندما ترد الماء تشربه كله، كما قال تعالى: ﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شـرب يوم معلوم﴾ [١].

﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ أي: اتركوها تأكل وترعى، فليس عليكم مؤونة إطعامها.

﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي: لا تتعرضوا لها بما يسيء إليها، فضلاً عن قتلها.

---

(١) الشعراء: الآية ١٥٥.

﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾ [٦٤] أي: ينزل الله بكم عذاباً قريباً من وقت التعرض لها، فلا يؤخر عنكم، وقد جاء وصفه أيضاً بعذاب عظيم، في قوله تعالى: ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾[١]. ومع أنه عليه السلام حذرهم، خالفوا أمره وقتلوا الناقة المعجزة:

﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ أي: تمتعوا بالحياة في مساكنكم مدة ثلاثة أيام فقط، وبعدها ينزل بكم العذاب، عذاب يوم عظيم.

﴿ذلك وعد غير مكذوب﴾ [٦٥] أي: وعد حق ثابت لا خلف فيه.

﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ أي: نجاهم الله تعالى برحمته وفضله، كما نجى نوحاً وهوداً والمؤمنين برحمته وفضله.

﴿ومن خزي يومئذٍ﴾ أي: ونجيناهم من ذل وفضيحة ذلك اليوم.

﴿إن ربك هو القوي العزيز﴾ [٦٦] أي: هو القادر الغالب، ينجي من يشاء برحمته، ويهلك من يشاء بعدله.

ثم بين سبحانه العذاب الذي أنزله بهم فقال:

﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ أي: طوقتهم الصيحة من كل مكان، وهي الصاعقة والصوت المفزع، ومعها الزلزلة الشديدة، قال تعالى: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾[٢].

ويمكن أن يراد بالرجفة الارتعاشة الشديدة التي حلت في أجسادهم عندما سمعوا الصوت الهائل المفزع، سكنت بعدها أجسامهم سكون الموت، فلا حراك بها.

---

(١) الشعراء: الآية ١٥٦.

(٢) الأعراف: الآية ٧٨.

﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ [٦٧] أي: هامدين موتىٰ لا يتحركون.

﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي: كأنهم لم يقيموا ويتمتعوا بهذه الديار التي كانت تزخر بحركتهم ونشاطهم.

﴿ألا إن ثمود كفروا ربهم﴾ أي: كفروا بربهم وجحدوا بآياته، فهم يستحقون العذاب الذي أنزله الله بهم.

﴿ألا بعداً لثمود﴾ [٦٨] أي: هلاكاً لهم وإبعاداً لهم عن رحمته وساحات فضله.

وقد جاء هذا التعقيب شبيهاً بتعقيبه تعالى على إهلاك عاد: ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود﴾.

بين يدي قصة لوط وقومه

وغيرت الآيات الأسلوب المطرد، الذي التزمته في عرضها لبعض وقائع الأمم الغابرة ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ لأنها ستعرض بين يدي قصة لوط وقومه، خبراً عن نبي الله إبراهيم عليه السلام والبشارة التي تفضل الله تعالى بها عليه، وهذا الخبر يناسب قصة لوط مكاناً وزماناً وموضوعاً.

فالمكان الأرض المباركة فلسطين، فقد كان عليه السلام يقيم في فلسطين، في البلدة التي تسمى الآن باسمه الخليل، بعد أن هاجر من بلاد قومه في العراق، أما القوم الذين أرسل إليهم لوط فكانوا يقيمون في مدينة سدوم وما حولها، في مكان البحر الميت الآن أو بحيرة لوط.

والزمان كان متقارباً أيضاً، فالواقعتان حدثتا في وقت واحد تقريباً.

والموضوع بيان العاقبة الطيبة للذين يلتزمون الحدود المشروعة المنسجمة مع الفطرة السليمة في علاقاتهم الجنسية، من حصول الخيرات

والبركات والنسل الطيب والذرية الطاهرة، وبيان النتيجة السيئة الوخيمة لمن يتجاوزون الحدود المشروعة، ويشذون عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

إبراهيم والبشرى

﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم﴾ وكانوا من الملائكة؛ لأن رسله تعالى إلى الأنبياء ملائكة، كما في قوله: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير﴾[1].

وتدل كلمة ﴿رسلنا﴾ على أنهم كانوا ثلاثة فأكثر.

﴿بالبشرىٰ﴾ وهي البشارة بالولد، ولم يرزق عليه السلام بعد بولد من زوجه سارة، وكان قد سأل الله تعالى أن يهبه ولداً عندما هاجر من بلاد قومه: ﴿وقال إني ذاهب إلىٰ ربي سيهدين. رب هب لي من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم﴾[2] فرزقه الله ولداً من هاجر، وكانت أمة مصرية مملوكة لزوجه سارة، وهبتها له فأولدها إسماعيل، فغارت منها سارة وحدث بينهما ما يكون بين الضرائر، فأمره الله تعالى أن يأخذ هاجر وإسماعيل، ويسافر بهما إلى وادي مكة من أرض الحجاز، ويتركهما هناك، ويرجع إلىٰ مكان إقامته في فلسطين، وكان من خبرهما بعد ذلك ما ذكرناه في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾[3].

﴿قالوا سلاماً﴾ أي: سلمنا عليك سلاماً.

﴿قال سلام﴾ أي: عليكم سلام، وقد حياهم عليه السلام بأحسن

---

(١) الحج: الآية ٧٥.
(٢) الصافات: الآيات ٩٩ ـ ١٠١.
(٣) البقرة: الآية ١٢٤.

من تحيتهم؛ لأنها بجملة اسمية دالة على الدوام والثبات، فهي أبلغ[1].

وجاءت الملائكة إليه بهيئات بشرية، فأسرع بتقديم الطعام إليهم:

﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ [٦٩] أي: ما تأخر في المجيء، بل عجل فأحضر عجلاً سميناً مشوياً على الجمر، مما يدل على كرمه وحبه للضيوف، ومسارعته إلى إكرامهم، قال تعالى: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون﴾[2].

ومن المعلوم أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون؛ لأن أجسادهم نورانية، فلم يمدوا أيديهم إلى الطعام:

﴿فلما رأى أيدهم لا تصل إليهم نكرهم﴾ أي: لما رأى أيديهم لا تمتد إلى الأكل من العجل أنكرهم، وظن أنهم لم يأتوا بخير، كما هو المعروف عند الناس.

﴿وأوجس منهم خيفة﴾ أي: استشعر خوفاً منهم.

وصارحهم عليه السلام بما في نفسه، قال تعالى: ﴿قال إنا منكم وجلون﴾[3]. فرد عليه الملائكة يطمئنونه ويعرفونه بحقيقة أنفسهم ومهمتهم:

﴿قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ [٧٠] أي: أرسلنا بالعذاب إلى قوم لوط، ثم أخبروه بالبشارة التي يحملونها له، قال تعالى: ﴿قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم. قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون. قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين. قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا

---

(١) روح المعاني: ١٢/٩٤.

(٢) الذاريات: الآيات ٢٤ - ٢٦.

(٣) الحجر: الآية ٥٢.

إلى قوم مجرمين﴾[1]. ويبدو أن زوجه سارة ما سمعت البشارة بالولد في أول الأمر، إذ كانت بعيدة عن المجلس في داخل بيتها، وحضرت عند الحديث عن إهلاك قوم لوط:

﴿وامرأته قائمة فضحكت﴾ أي: ضحكت سروراً بهلاك المفسدين الشاذين المعرضين عن النساء إلى الرجال، ولعل ميل النساء الفطري إلى الرجال هو سبب سرورها، فشذوذ الرجال وانصرافهم عن النساء يؤثر كثيراً عليهن.

﴿فبشرناها بإسحاق﴾ أي: بشرناها بولد اسمه إسحاق.

ولا يخفىٰ ما في نسبة البشارة إلى الله تعالى، مع أنها كانت بلسان رسله من الملائكة، من تكريم لهذه المرأة الصالحة، التي استنكرت انحراف الشاذين من الرجال، وفرحت بانتقام الله تعالى منهم.

﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ [٧١] أي: وبشرناها أيضاً بأنها ستعيش حتىٰ تقر عينها برؤية ولد ولدها، يعقوب بن إسحاق عليهما السلام، فهي بشارة مضاعفة وفرحات متوالية، على قلب هذه المرأة الكريمة الصالحة.

ودلت البشارة على أن إسحاق سيعيش حتىٰ يتزوج، فهو لم يكن الذبيح كما يزعم اليهود، بل الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

﴿قالت يا ويلتي﴾ أي: قالت وهي في غمرة فرحتها، تعلن استعظامها لقدرة الله تعالى وتعجبها منها.

وأصل الويل الخزي، ثم شاع النطق به عند النساء في كل أمر يستعظم ويتعجب منه. ﴿أألد وأنا عجوز﴾ أي: كيف ألد وأنا في سن العجز والإياس؟!

ومن المعلوم أن المرأة إذا تقدمت بها السن، ينقطع دم حيضها وتتعطل أجهزة الإخصاب والولادة فيها، وهذا إذا كانت ولوداً، فكيف إذا

---

(١) الحجر: الآيات ٥٣ ـ ٥٨.

كانت عقيماً كزوج إبراهيم، التي استبدت بها الفرحة، فضربت بيدها على وجهها، ورفعت صوتها تعلن تعجبها من عظيم قدرة الله تعالى: ﴿فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾[1].

﴿وهذا بعلي شيخاً﴾ أي: وهذا زوجي في سن الشيخوخة، يقال: إنها كانت في سن التسعين، وكان عليه السلام في سن المائة والعشرين، والله أعلم.

﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ [٧٢] أي: بالنسبة إلى سنته تعالى في عباده.

بيت النبوة

﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أي: قال الملائكة: أتعجبين من أمر الله في قدرته وحكمته جل وعلا، وأنت في بيت النبوة ومهبط الوحي، وموضع المعجزات والكرامات والأمور الخارقة للعادات.

﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي: رحماته تعالى متتابعة عليكم، وخيراته النامية المتكاثرة عليكم يا أهل البيت، والمراد به بيت النبوة، البيت المفرد العلم، معدن النبوة وممتد الرسالة، الذي تفرعت منه كل النبوات والرسالات، حتىٰ ختمت بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه وعلى آله الصلاة والتسليم، قال تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾[2].

ودلت الآية على دخول الزوجة في أهل البيت، ويؤكده ما أنزل الله في بيت النبوة، مخاطباً أمهات المؤمنين: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم

---

(١) الذاريات: الآية ٢٩.
(٢) العنكبوت: الآية ٢٧.

الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾[1].

﴿ إنـه حميد مجيد﴾ [٧٣] أي: إنه المحمود الذي يستوجب الحمد، عظيم الكرم والإحسان والشرف والمجد، جل وعلا.

﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ أي: ذهب الخوف الذي اعترى إبراهيم حين نكر أضيافه.

﴿وجاءته البشرى﴾ أي: بعد أن ذهب الخوف وحصل السرور بالبشرىٰ.

﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ [٧٤] أي: شرع يجادل رسلنا في شأن عقاب قوم لوط لعله يؤخر عنهم.

وفصل تعالى هذه المجادلة في موضع آخر بقوله: ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرىٰ قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين. قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾[2].

﴿إن إبراهيم لحليم﴾ أي: غير عجول على الانتقام من الكفار.

﴿أواه﴾ أي: كثير التأوه خوفاً من الله تعالى وتأسفاً على الناس.

﴿منيب﴾ [٧٥] أي: راجع إلى الله تعالى غير غافل عنه.

وهو مدح من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بهذه الصفات الكريمة، التي تدل على رقة قلبه ورهافة مشاعره، وشفقته الكبيرة على الناس، فمجادلته عليه السلام كانت بسبب دوافع نفسية كريمة، يعذر بسببها ولا يلام عليها، ولهذا اكتفىٰ الملائكة بقولهم له: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك﴾ أي: يا إبراهيم أعرض عن هذا الجدال، إنه قد جاء

---

(١) الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) العنكبوت: الآيتان ٣١ ـ ٣٢.

قضاء ربك المحتم وحكمه المبرم، بعد أن أمهلهم تعالى مدة تكفي للتوبة والإنابة، ولكنهم أصروا على كفرهم وفجورهم.

﴿وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ [٧٦] أي: عذاب لا يمنع ولا يدفع بجدال أو غيره.

في بيت لوط

وجاءت الملائكة إلى لوط عليه السلام، وهو في بيته، بهيئات جميلة حسنة، وانتقلت الآيات إلى بيت لوط، لتصف لنا كيف استقبل ضيوفه ذوي الوجوه الحسنة، وما حدث له مع قومه:

﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم﴾ أي: ساءه مجيئهم خوفاً عليهم من قومه.

﴿وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب﴾ [٧٧] أي: أحس بضيق وانقباض في صدره، وقال يحدث نفسه: هذا يوم شديد.

وحدث المكروه الذي توقعه من قومه، فما لبثوا عندما سمعوا بضيوف لوط، أن أتوه مسرعين:

﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ أي: جاؤوا إلى بيت لوط مسرعين يدفع بعضهم بعضاً، وهم يتسابقون إلى الفاحشة.

﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ أي: وكانوا قبل هذا الوقت منهمكين في فعل السيئات، فالقوم أدمنوا على الفواحش والشذوذ، ولهذا لم يستحيوا من مسارعتهم إليها، ولم يجدوا في أنفسهم أدنىٰ غضاضة.

ولما رآهم عليه السلام مقبلين نحوه كالثيران الهائجة، وسعار الشهوة يضطرم في صدورهم، ما كان منه إلا أن تصدى لهم أمام بيته، ليدفعهم عن ضيوفه وعن شرف بيته وكرامته، وعرض عليهم أعز ما عنده.

﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي﴾ أي: هؤلاء بناتي فتزوجوهن.

وأراد عليه السلام بهذا العرض عليهم، أن يحمي أضيافه ببناته، ويبدو أنه عليه السلام ما قصد بناته الصلبيات فقط، وإنما قصد عموم نساء قومه، فهو بالنسبة لمقامه الرفيع بينهم كالوالد لهم، والدليل على ذلك ما حكاه سبحانه عنه في قوله: ﴿أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾.[1].

﴿هن أطهر لكم﴾ أي: هن أطهر لكم حقيقة ومعنىً، ففي إتيان النساء في المأتىٰ الطبيعي استجابة للفطرة السليمة، أما إتيان الذكور في موضع القذارة والنجاسة، فهو شذوذ عن الفطرة السليمة، وانتكاس إلى القذارة والنجاسة.

﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ أي: اتقوا الله بالخوف منه وخشيته والتزام حدوده، ولا تلحقوا بي الذلة والمهانة والفضيحة، باعتدائكم على حرمة أضيافي، وهي محاولة منه عليه السلام في استثارة نخوتهم، لعل فيهم بقية من مروءة ونخوة، كما حكىٰ الحق عنه في موضع آخر: ﴿قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون. قالوا أولم ننهك عن العالمين. قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين. لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾[2].

﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ [٧٨] أي: أليس فيكم رجل واحد فيه خير واستقامة ورشاد، وهذا يدل على أن سعار الشهوة الشاذة غلب عليهم جميعاً، كما غلب على قلوبهم فلم يبق فيها أي جانب من جوانب الخير، حتىٰ اختلت القيم عندهم، وانعكست نظرتهم إلى الأمور، فأصبح المعروف المألوف باطلاً ومنكراً في نظرهم، ولهذا ردوا عليه قائلين بوقاحة وسوء أدب.

﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ أي: ما لنا في النساء اللاتي تريد أن ننصرف إليهن من حاجة ومأرب، فقضاء الوطر وتلبية نداء

---

(١) الشعراء: الآيتان ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) الحجر: الآيات ٦٨ ـ ٧٢.

الشهوة بالطريق الفطري المشروع أمر باطل في نظرهم.

﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ [٧٩] أي: من العمل الخبيث الفاحش، فما أقبح الإنسان عندما ينسلخ عن مسؤوليته، وتستبد به أهواؤه ونزواته.

إن قوم لوط صورة للواقع الأليم الذي يمكن أن تنحط إليه البشرية، يبين لنا ضرورة التكليف وشدة حاجة الناس إلى الرسالات الإلٰهية، التي تبين لهم حكمة وجودهم وجوهر حياتهم، وتربي في نفوسهم ووجدانهم الشعور بالمسؤولية أمام خالقهم، فلا يمكن ضبط النفوس الجامحة إلا بتربية الوجدان الديني، الذي يجعل الإنسان يستشعر رقابة الله تعالى عليه ويقدر مسؤوليته أمامه يوم القيامة.

ولنا أن نتصور مدى المعاناة النفسية الأليمة، التي مر بها نبي الله لوط عليه السلام، في تلك الفترة الحرجة، ويبدو أنه التفت أخيراً إلى ضيوفه، كالمعتذر إليهم عما يرونه من قومه:

﴿قال لو أن لي بكم قوة﴾ أي: لو أجد عندكم قوة أستعين بها على هؤلاء الكفرة الفجرة، لفعلت بهم وفعلت، وحذف جواب لو لدلالة السياق عليه، وليذهب الخيال في تقديره مذهباً بعيداً.

﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ [٨٠] أو ألجأ إلى جانب قوي منيع، أمتنع فيه معكم. لقد شغلته المعاناة النفسية الأليمة عن قوة الله تعالى وحوله، ولهذا قال سيدنا رسول الله ﷺ: «يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد»[١].

ورأىٰ بعض العلماء أن في قول النبي ﷺ هذا مدحاً للوط، لأنه لم يأو إلىٰ قومه، وأوى إلى الله تعالى.

وقال النووي: يجوز أنه لما اندهش بحال الأضياف قال ذلك، أو أنه التجأ إلىٰ الله في باطنه وأظهر هذا القول للأضياف اعتذاراً[٢].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٣٧٥).

(٢) انظر: فتح الباري: ٤١٦/١.

عندئذٍ كشف الملائكة له عن حقيقتهم، وجلوا له أمرهم.

الصبح القريب

﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ أي: لن يتمكنوا من الوصول إليك، فدعنا وإياهم وتنح عنهم، فالله سبحانه لا يتخلىٰ عن أحبابه وأوليائه، بَلْه أنبياءه، وهو القائل: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[1]، فلن يغلب الفجار الأبرار، والله سبحانه ما خلق الخلق لأصحاب المجون والفجور والشذوذ.

أذن الله تعالى لأحد ملائكته أن يظهر جزءاً من بنيته النورانية، في وجوه أولئك الذين أعمت الشهوة الشاذة بصائرهم، فطمست أعينهم، وسلبت بمشيئته تعالى وقدرته قوة الإبصار، فرجعوا يتلمسون الدروب في الظلام إلى بيوتهم، وهم يقولون: إن هؤلاء أسحر أهل الأرض، قال تعالى: ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾[2].

ثم التفت الملائكة إلى لوط قائلين له:

﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ أي: اخرج من البلد مع أهلك في الليل.

﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي: لا ينظر أحد إلى ما وراءه، كما يفعل النازحون عن بلدهم ووطنهم، يغادرونه وهم ينظرون إليه مودعين آسفين على فراقه، فالبلد بمن فيه بلد ملوث بالمجون والفجور، فلا تأسفوا على فراقه، ولا تنظروا إليه نظرة مودع.

﴿إلا امرأتك إنه يصيبها ما أصابهم﴾ أي: لا تسربها ولا تخرجها معك؛ لأنها ليست على دينك، ولا بد أن يصيبها ما يصيب قومها من

---

(١) غافر: الآية ٥١.

(٢) القمر: الآية ٣٧.

العذاب، ولن تنفعها صلتها بك، لأنها اختارت الكفر، وهي مسؤولة عن كسبها واختيارها، كما قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾[1].

فكل إنسان ـ كما مر معنا ـ مسؤول مسؤولية فردية شخصية عن عمله.

ويبدو أن لوطاً عليه السلام استعجل إنزال العذاب بهم من شدة ما عانىٰ منهم، وما رأىٰ من خبثهم وإجرامهم وشرهم، فقال له الملائكة:

﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾ [٨١] أي: إن الموعد الذي قدره الحق سبحانه وتعالىٰ لإنزال العذاب بهم، عند ظهور نور الصبح، وهو قريب.

﴿ولما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها﴾ أي: لما جاء أمر الله تعالىٰ بإهلاكهم، وتطهير الأرض من دنسهم وفسادهم وشذوذهم، قلبنا الأرض بهم، وجعلنا أعلاها في موضع أسفلها، والجزاء من جنس العمل؛ لأنهم عكسوا الأمور، وانتكسوا عن الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها. ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود﴾ [٨٢] أي: أنزل الله عليهم أيضاً حجارة من طين متحجر متتابع فوق رؤوسهم.

﴿مسومة عند ربك﴾ أي: معلمة، فكل حجر موجه لواحد منهم لا يخطىء هدفه، لأنه مرسل من عند الله تعالى القوي العزيز العليم.

وقد عذبهم الله تعالى بعذاب ثالث قطعاً لدابرهم، قال تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون. فأخذتهم الصيحة مشرقين. وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾[2].

---

(١) التحريم: الآية ١٠.

(٢) الحجر: الآيات ٧٢ ـ ٧٤.

﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ [٨٣] أي: وهذه الحجارة يمكن أن تنزل على غيرهم من الظالمين، ففي الآية تهديد ووعيد شديد لكل الشاذين المنحرفين المتشبهين بقوم لوط.

قصة شعيب وقومه

وتحولت الآيات إلى الشمال قليلاً من بلاد ثمود، إلىٰ قوم نبي الله شعيب في مدين:

﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً﴾ أي: أرسلنا إلىٰ مدين أخاهم شعيباً، وقال لهم كما قال الأنبياء من قبله: ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره﴾.

وأبرز عليه السلام آفة خطيرة ابتلي بها قومه، وهي التلاعب بالمكاييل والموازين، ليأكلوا أموال الناس بالباطل، فقال:

﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير﴾ أي: إني أراكم بسعة وغنىٰ ورخاء، فلا تزيلوا هذه النعمة عنكم بالغش والاحتيال.

﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ [٨٤] أي: إني أخشىٰ أن ينزل بكم، إن أصررتم على كفركم ومعاصيكم عذاب يوم لا ينجو منه أحد.

﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ أي: أتموهما بالعدل وأزيلوا ما أحدثتم فيهما من نقص، فهو ينصحهم ليصلحوا ما أفسدوا من المكاييل والموازين، حتىٰ يتحقق العدل في جميع معاملاتهم المستقبلة وتشيع الثقة بينهم.

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أي: ولا تنقصوا الناس أي حق من حقوقهم، مما يدل علىٰ أن الاحتيال والكذب والغش كانت سائدة في معاملاتهم.

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [٨٥] أي: لا تعملوا على نشر

الفساد في الأرض، وكانوا إلىٰ جانب ما تقدم يقطعون الطرق على الناس، مستفيدين من موقع بلادهم على طرق القوافل بين الشمال والجنوب والغرب والشرق، قال تعالى: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ (١).

﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي: ما يبقىٰ لكم من مال حلال بعد أن تردوا الأموال المسروقة والمغصوبة إلى أصحابها، خير لكم من الأموال الكثيرة التي جمعتموها بالباطل، بشرط أن تؤمنوا بالله تعالى، وتلتزموا بأحكام دينه وشرعه، فلا خير مع الكفر.

أو إن كنتم تصدقونني فيما أقول لكم وأدعوكم إليه، فما يرزقكم الله تعالى بالحلال خير مما تجمعونه بالحرام. وقد يكون مراده أن يبين لهم أن الحلال الطيب ولو كان قليلاً، خير من الخبيث الكثير المحرم.

قال تعالى: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾(٢).

﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ [٨٦] أي: وما أنا الذي أحفظ أعمالكم وأسألكم عنها، بل أنا مبلغ وقد أعذرت إذ أنذرت، وأنتم مسؤولون أمام ربكم.

لكن الشره والطمع وحب المال أعمىٰ بصائرهم، واستعمر قلوبهم، ولوث ضمائرهم، فلم يتأثروا بموعظة نبيهم، وردوا عليه بتهكم وازدراء واحتقار:

﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ أي: من الأصنام والأوثان، وقد بلغوا في قولهم هذا أقصىٰ مراتب الخلاعة والمجون

---

(١) الأعراف: الآية ٨٦.

(٢) المائدة: الآية ١٠٠.

والضلال، حيث لم يكتفوا بإنكار الوحي الآمر بذلك، حتىٰ ادعوا أن لا آمر به من العقل واللب أصلاً، وأنه من أحكام الوسوسة والجنون، وعلىٰ ذلك بنوا استفهامهم [1].

كأن صلاته عليه السلام في نظرهم من أفاعيل المجانين، وأنها هي التي أمرته بذلك.

﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ أي: وصلاتك توحي إليك أيضاً لكي نمتنع عن التصرف في أموالنا كما نشاء.

إنه الجشع وطغيان المال الذي يدفع أصحابه إلىٰ استغلاله واستثماره بطرق تعسفية، كالربا والاحتكار والغش والتلاعب بالمقاييس، تحت شعار الحرية الاقتصادية، ويؤدي هذا إلىٰ تكديس الثروات في أيدي حفنة قليلة من الناس، يزيدهم سرفاً وترفاً وبطراً، ويزيد عامة الناس فقراً وفاقة وحرماناً.

﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ [٨٧] ولا يخفىٰ أنهم ما أرادوا وصفه عليه السلام بهذه الصفات، بل أرادوا التهكم به والسخرية منه عليه السلام.

خطيب الأنبياء

ورد عليه السلام عليهم متجاهلاً تهكمهم واستهزاءهم، ووجه كلامه إلىٰ تأكيد صدق رسالته وصحة نبوته، وإلىٰ تنزيه دعوته عن تحقيق أي كسب مادي له، فقد رزقه الله تعالى رزقاً طيباً حلالاً يكفيه ويغنيه، وهو لا يريد بدعوته إلا الإصلاح العام في المجتمع.

﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ أي: أخبروني كيف أتخلىٰ عن دعوتي، وهي قائمة على بينة

---

(١) تفسير أبي السعود: ١٢٥/٥.

واضحة من ربي، ورزقني معها رزقاً طيباً حسناً، يغنيني ويكفيني.

فقوله هذا يشبه قول الأنبياء السابقين الذين نزهوا دعوتهم عن أي كسب مادي، عندما قال كل واحد منهم: ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني﴾، كما مر معنا، لكن شعيباً عليه السلام عرض هذا المعنىٰ بأسلوب آخر.

﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ أي: وما أريد أن أذهب من خلفكم فأفعل ما نهيتكم عنه، لأستأثر بالنفع والكسب دونكم. وهو تعريض ببعض الأساليب الملتوية التي يلجؤون إليها، لاحتكار البضائع وتحقيق الأرباح.

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أي: ما أريد بدعوتي إلا الإصلاح والنصيحة والموعظة، على قدر استطاعتي.

﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ [٨٨] أي: وما توفيقي إلا بتأييده سبحانه ومعونته، ولهذا فإني أتوكل عليه وأرجع إليه لا إلى غيره.

وكان الخليفة الأموي الصالح عمر بن عبد العزيز رحمه الله، يختم كتبه إلىٰ عماله بقوله تعالى: ﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾(١).

ثم أضاف عليه السلام إلى موعظته ودعوته، تهديدهم بعذاب الله تعالى، مع إخبارهم بشفقته عليهم، وخوفه أن يصيبهم ما أصاب الأمم الهالكة من حولهم، وجمع عليه السلام كل هذه المعاني بكلمات بليغة مؤثرة، فهو حقاً خطيب الأنبياء:

﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح﴾ أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على الكفر والفساد، فيصيبكم العذاب والهلاك، كما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٤٥٧.

﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ [٨٩] فهم قريبون منكم في المكان والزمان، فالعذاب الذي أنزله الله بقوم لوط ذاع وانتشر بين الناس، وتناقله المسافرون والركبان، وآثاره لا زالت باقية حتىٰ اليوم، في أخفض مكان في العالم عن سطح البحر، وهو البحر الميت أو بحيرة لوط. ثم ختم عليه السلام كلماته بحثهم على الاستغفار والتوبة، كما فعل الأنبياء قبله:

﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾ [٩٠] أي: عظيم الرحمة كثير المودة للمستغفرين التائبين.

وبقي قوم شعيب مصرين على كفرهم وفسادهم، مع أنهم سمعوا أدلة الحق الواضح على أحسن وجه وأبلغة، وقابلوا كلامه المحكم المؤيد بالحجج القاطعة بالإعراض، وتظاهروا بالغباء، وقلة الفهم، ولوحوا له مهددين متوعدين:

﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ أي: ما نفهم أكثر كلامك، فهو كلام غريب غير مفهوم في نظرهم، مما يدل على تبلد مشاعرهم وغلظة طباعهم.

وكثيراً ما نشاهد في عصرنا الحاضر أمثال الملأ من قوم شعيب، ممن طغىٰ حب المال على نفوسهم، وسيطر على أفكارهم، فلا يفهمون إلا ما يسمى في العصر الحاضر لغة المال، وهي في الحقيقة لغة الجشع والشره والطمع، فإذا ما حدثتهم بلغته أنصتوا إليك بكل ذرة في أجسادهم، وأما إذا حدثتهم حديثاً آخر أعرضوا عنك وأغلقوا دون حديثك أسماعهم وعقولهم، ورأوا فيما تحدثهم به مضيعة لوقتهم.

ثم أضافوا قائلين:

﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾ أي: نراك قليل المال لا قوة لك، فالمال في نظرهم هو القوة، وما كان عليه السلام من أصحاب الثراء الواسع والغنىٰ الكبير.

﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ أي: لولا عشيرتك التي تنتمي إليها لقتلناك

رجماً بالحجارة، وقد هددوه أيضاً بالإخراج من البلاد وطرده منها، قال تعالى: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولـو كنا كارهين﴾ (١).

﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ [٩١] أي: أنت لست عزيزاً علينا، وإنما رهطك وعشيرتك هم الأعزة عندنا.

ويبدو أن رهطه عليه السلام كانوا مثلهم متمسكين بالكفر والفساد، ولهذا أظهروا الميل إليهم والاكرام لهم.

توبيخ وتحـدي

وما كان شعيب عليه السلام يعتز بعشيرته ولا يعتمد عليهم، ولا يحتمي بهم، ومر معنا أنه أعلن اعتزازه بالله تعالى واعتماده عليه وحده، عندما قال: ﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾، ولهذا رد عليهم منكراً قولهم هذا وموبخاً لهم عليه:

﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾ أي: كيف تجعلون رهطي أعز عليكم من الله جل جلاله؟ فإن تهاونكم بي تهاون بالله تعالى، فهو الذي أرسلني إليكم.

ولا يخفىٰ ارتفاع نبض كلماته وحرارة عاطفته، مما يدل على غضبه عليه السلام لربه تعالى: ﴿واتخذتموه وراءكم ظهريـاً﴾ أي: جعلتموه سبحانه كالشيء المنبوذ وراء ظهوركم، لا تبالون به ولا تخافون من سطوته، وأنتم في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته.

﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ [٩٢] فلا يخفىٰ عليه شيء منكم، ولا نجاة لكم من سطوة عذابه وانتقامه.

---

(١) الأعراف: الآية ٨٨.

ثم ألقىٰ عليه السلام إليهم كلمته الأخيرة، بصيغة الإنذار الأخير لهم:

﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي: اعملوا بالأسلوب والطريقة التي تختارونها لأنفسكم، فأنتم مسؤولون عن عملكم واختياركم، ومجزيون عليه أوفىٰ الجزاء وأعدله في الدنيا والآخرة.

﴿إني عامل﴾ أي: بما شرعه لي ربي وكلفني به، فكل منا مسؤول عن عمله وكسبه واختياره.

﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي: يفضحه ويهينه بسبب سوء كسبه واختياره.

﴿ومن هو كاذب﴾ أي: وستعلمون أيضاً أينا الكاذب، وفيه تعريض بكذبهم في ادعائهم القوة والقدرة على رجمه عليه السلام، ووصفه بالضعف والهوان.

﴿وارتقبوا إني معكم رقيب﴾ [٩٣] أي: انتظروا ما يحل بكم إني معكم منتظر.

وهكذا أظهر عليه السلام ثقته الكاملة بالله تعالى، وتحداهم بصراحة وعرض بهم ووبخهم، دون أن يبالي بتهديدهم ووعيدهم.

﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ أي: بفضل منه تعالى، كما نجىٰ الأنبياء السابقين، ومن كان معهم من المؤمنين.

﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ كما أخذت قبلهم ثمود، وارتعشت أجسامهم واهتزت لقوتها، ثم همدت، قال تعالى: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ [1]. وقال هنا: ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ [٩٤] أي: هامدين لا حراك بهم.

---

(١) الأعراف: الآية ٩١.

﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي: مضوا وانقضوا كأنهم ما كانوا وما سكنوا هذه الديار، ولا جمعوا هذه الأموال.

﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ [٩٥] أي: هلاكاً لمدين وبعداً لهم عن رحمته تعالى، كما أبعدت ثمود عن رحمته وساحات فضله، وذكر سبحانه ثمود لأنهم كانوا جيرانهم، قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم [١].

ويمكن أن يكون ذكر ثمود، لأن مصيرهم وإهلاكهم يشبه مصير ثمود.

موسى وفرعون

وختمت الآيات استعراضها التاريخي لبعض قصص الأنبياء مع أممهم، بوقفة قصيرة عند نبي الله موسى مع فرعون، أظهرت فيها مسؤولية كل إنسان مسؤولية شخصية فردية، وأشارت إلىٰ أن اتباع قوم فرعون وطاعتهم له لا يخلصهم من مسؤوليتهم أمام الله تعالىٰ:

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ [٩٦] أي: أرسلنا موسى مؤيداً بالمعجزات الباهرة، والحجة البينة الواضحة.

﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي: إلىٰ فرعون وأعوانه ورجال دولته.

ومن المعلوم أن رسالة موسى كانت أيضاً إلى بني إسرائيل وعامة المصريين، ولكن الآيات ذكرت رأس الضلال وحاشيته، الذين كانوا أكثر الناس طاعة له ومسارعة إلىٰ تنفيذ أوامره، ولهذا قال تعالى فيهم:

﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أي: اتبعوه اتباعاً أعمىٰ دون أدنىٰ نظر وتفكير.

﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ [٩٧] أي: وما كان أمر فرعون على خير وهدى، بل كان طاغية متجبراً يدعي لنفسه صفة الألوهية والربوبية، ويقول

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٤٥٨.

ما حكاه تعالى عنه: ﴿ما أريكم إلا ما أرىٰ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾[1].

وفي وصفه بعدم الرشاد تجهيل لمتبعيه، الذين تابعوه على أمره وهو شر محض وضلال ظاهر، وأعرضوا عن دعوة موسى، المؤيدة بالمعجزات الباهرة والسلطان المبين.

﴿يقدم قومه يوم القيامة﴾ أي: يتقدمهم يوم الحساب والجزاء، فكما كان قدوتهم في الضلال في الدنيا، كذلك يتقدمهم إلى النار يوم القيامة.

﴿فأوردهم النار﴾ أي: يوردهم النار كما يورد الراعي قطيع الغنم، ويدخلون فيها وراءه.

وهذا نص صريح في عذاب فرعون يوم القيامة في النار، ورد على القائلين بنجاته من العذاب[2].

﴿وبئس الورد المورود﴾ [٩٨] أي: بئس الورد الذي يردونه النار، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار على ضد ذلك[3].

ولعنهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، كما لعن الأمم الكافرة قبلهم، فقال:

﴿وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة﴾ فهي لعنة تتبعهم وتلازمهم ولا تفارقهم في الدنيا والآخرة، ولما كانت اللعنة أمراً زائداً على عذابهم، جعلت كمعونة لهم على سبيل التهكم، فوصفت بقوله تعالى:

﴿وبئس الرفد المرفود﴾ [٩٩] أي: وبئس العون المقدم لهم.

ويطلق الرفد في الأصل على كل ما يضاف إلى غيره.

---

(١) غافر: الآية ٢٩.

(٢) انظر: الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس.

(٣) تفسير أبي السعود: ٥/١٣٥.



الفصل الثالث

الاسْتِقَامَةُ عَلى التَّكْليفِ وَالتَّحْذِيرْ مِنَ الظُّلْمِ



التَّعْقِيبُ

وشرعت الآيات في التعقيب على هذه القصص، وبيان ما فيها من مواعظ وعبر وحكم، بعد أن أبرزت في أثناء عرضها، مسؤولية الإنسان الشخصية الفردية، عن كسبه واختياره، والجزاء الذي يبدأ في الدنيا ويمتد إلى الآخرة.

والتفتت الآيات في أول تعقيب إلىٰ مخاطبة النبي ﷺ، تثبته وتواسيه في مواجهة قومه، وتؤكد أن هذه الأخبار التاريخية من وحيه تعالى، المنزل على الرسول ﷺ: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ ذلك الذي تقدم ذكره، بعض أخبار البلاد والمدن الهالكة والحضارات البائدة، نقصه عليك يا محمد.

﴿منها قائم وحصيد﴾ [١٠٠] أي: بعضها لا تزال آثارها قائمة ماثلة للعيان، كديار ثمود، التي مر النبي ﷺ فيها، وهو في طريقه إلىٰ تبوك، فعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما مر بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم» ثم تقنع بردائه وهو على الرحل. وفي رواية أخرى عنه: أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك، أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا

ذلك الماء [1].

وبعض هذه القرى الهالكة أصبح حصيداً عفا عليه الزمن ومحا آثاره، كالزرع المحصود إذا مر عليه زمن طويل.

﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾ أي: ما ظلمهم الله تعالى بإهلاكهم، فهو سبحانه منزه عن الظلم وعن جميع صفات النقص، ولكن ظلموا أنفسهم بسوء اختيارهم وكسبهم، عندما ظنوا أنهم غير مسؤولين، وأنهم خلقوا للعبث واللهو والبغي، فأعرضوا عن رسالات الله تعالى وكذبوا أنبياءه.

﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك﴾ أي: فما نفعتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله تعالى، عندما نزل بهم العذاب والهلاك، فما دفعت عنهم عذاباً، ولا أخرت عقاباً.

﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ [١٠١] أي: وما زادوهم غير تخسير، فبدل أن ينفعوهم زادوا في خسارتهم التي لا عوض لها ولا تلافي عنها؛ إذ صرفوهم عن المهمة الأساسية التي خلقهم الله لها، وهي عبادته تعالى وعمارة الأرض بطاعته والتزام شرائعه.

تحذير عام

وإهلاكه تعالى للبلاد الظالمة، وإسقاطه للحضارات الفاسدة، لم ينته ولن يتوقف، فله تعالى سنن في خلقه لا تتغير ولا تتبدل، وهذا ما قرره تعالى في التعقيب الثاني بقوله:

﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ أي: ومثل ذلك الإهلاك والتدمير الذي أنزله الحق في الأمم الظالمة الباغية، سيكون انتقامه وإهلاكه للبلاد الظالمة والأمم الفاسدة الطاغية.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء: (٣٣٨٠، ٣٣٧٨).

وقد يختلف أسلوب الانتقام والتدمير من الأمم الباغية الظالمة، ولكنه واقع بهم لا محالة، كما يشاء سبحانه وكما تعلق به علمه، قال تعالى: ﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾ (1)، وقال أيضاً: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ (2).

وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (3) ومهما كان انتقام الله تعالى من الظالمين، فهو أليم شديد:

﴿إن أخذه أليم شديد﴾ [١٠٢].

وفي الآية تحذير عام لكل الأمم والأجيال، ولجميع الأفراد والجماعات.

ولا يعتبر بهذه القصص ويستفيد من دروسها ومواعظها، إلا الإنسان الذي يشعر بمسؤوليته عن هذه الحياة، ويؤمن أنه ما خلق عبثاً، وأنه مكلف مسؤول مثاب أو معاقب، فالشعور بالمسؤولية مفتاح كل خير وصلاح، والانسلاخ عنها مفتاح كل شر وفساد، وقد دأبت الآيات الكريمة في السورة على التركيز على هذا المعنىٰ وإبرازه، وهو التعقيب الثالث على ما تقدم من قصص في السورة، قال تعالى:

﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾ أي: إن فيما تقدم من أخبار الأمم الهالكة لعبرة وموعظة لمن قدر مسؤوليته عن أعماله يوم القيامة، وخاف مما فيها من حساب وجزاء، فأصلح عمله وسلوكه، والتزم بدين الله تعالى وشرعه.

---

(1) الأعراف: الآية ١٨٣.

(2) إبراهيم: الآية ٤٢.

(3) صحيح مسلم، كتاب البر: (٢٥٨٣).

﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾ أي: يوم القيامة يوم لا بد منه، يجمع الله تعالى فيه جميع الناس، قال تعالى: ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون. إلى ميقات يوم معلوم﴾(١).

وقال أيضاً: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ (٢).

﴿وذلك يوم مشهود﴾ [١٠٣] أي: يشهده جميع الخلائق ولا يغيب عنه أحد.

﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ [١٠٤] أي: وما نؤخر يوم القيامة إلا لأجل مقدر محسوب، سبق في علمه تعالى، وتعلقت به إرادته ومشيئته، ولا يعلمه إلا هو جل جلاله، فإذا انتهت العدة المقدرة المحسوبة، أقامه العليم الخبير.

الأشقياء والسعداء

ومر معنا أن الناس بالنسبة لهذا اليوم فريقان: فريق جاحد له وفريق مصدق به، وكذلك يكونون فيه عندما يقيمه الله تعالى:

﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ أي: عندما يأتي يوم القيامة لا يجرؤ أحد على الكلام إلا بإذنه جل وعلا، فالملك فيه لله تعالى وحده، والأمر والحكم فيه له أيضاً وحده، وحتىٰ الملائكة المقربون والأنبياء والمرسلون لا يتكلمون إلا بإذنه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمٰن وقال صوابا﴾(٣).

ففي أول الحشر يخيم على الخلائق صمت رهيب وسكون عميق

---

(١) الواقعة: الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) التغابن: الآية ٩.

(٣) النبأ: الآية ٣٨.

شامل، قبل أن يبدأ الحساب، ويميز الله تعالى بين الأشقياء والسعداء.

﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ [١٠٥] أي: فمن المكلفين شقي وجبت له النار واستحق العذاب، بسوء كسبه واختياره، ومنهم سعيد وجبت له الجنة، بفضل الله تعالى، بسبب حسن اختياره وكسبه.

﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾ [١٠٦] أي: فأما الذين اختاروا طريق الشقاء وأصروا عليه حتىٰ الموت، فمصيرهم إلى النار، لهم فيها من شدة حرها زفير وشهيق، وهو كناية عن تردد أنفاسهم بصعوبة ومشقة، فالزفير إخراج النفس بصعوبة، والشهيق أخذه كذلك.

﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ أي: ماكثين فيها ما دامت السموات والأرض. وهذا التوقيت عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع، بناء على منهاج قول العرب: ما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وما اختلف الليل والنهار، وغير ذلك من كلمات التأبيد.

وليس المراد تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والأرض، فإن النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها، وانقطاع دوام السموات والأرض.

وإن أريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وأرضها، كما قال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار﴾ [١]، وهي باقية بمشيئته تعالى لا زوال لها.

﴿إلا ما شاء ربك﴾ وهذا الاستثناء يبين لنا أن دوام بقائهم وخلودهم فيها، بمشيئة الله تعالى كما أخبرنا بنصوص قاطعة كثيرة عن ذلك، فمشيئته تعالى نافذة أبداً فيهم، وخلودهم في النار ليس أمراً ذاتياً، إنما هو بمشيئته جل وعلا، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك، يبين طلاقة مشيئته وكمالها:

---

(١) إبراهيم: الآية ٤٨ انظر: تفسير أبي السعود ٥/١٣٩.

﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ [١٠٧] وقد أراد خلودهم في النار أبداً، وأخبر عن ذلك بآيات كثيرة، منها قوله الكريم: ﴿إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً. خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ (١)، ومنها قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً﴾ (٢)، ومنها قوله أيضاً: ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ (٣).

والجدير بالذكر أن المفسرين اختلفوا في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة، نقل كثيراً منها ابن جرير رحمه في كتابه، واختار ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وابن سنان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً، أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حتىٰ يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من لم يعمل خيراً قط، ولكنه قال يوماً من الدهر لا إله إلا الله. . . ولا يبقىٰ بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها(٤).

وأما مصير السعداء، فهم في الجنة خالدين فيها أيضاً بمشيئته تعالى:

﴿وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ أي: إن خلودهم في الجنة منوط بمشيئته تعالى، وقد أخبر تعالى في آيات كثيرة أنه شاء خلودهم أبداً.

قال ابن كثير: معنىٰ الاستثناء ههنا، أن دوامهم فيما هم فيه من

---

(١) الأحزاب: الآيتان ٦٤ ـ ٦٥.
(٢) النساء: الآيتان ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٣) الجن: الآية ٢٣.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٦٠.

النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً [1].

﴿عطاء غير مجذوذ﴾ [١٠٨] أي: أعطوا في الجنة عطاء غير مقطوع، فهو مستمر بفضله تعالى أبدا، كما في قوله الكريم: ﴿إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ [2].

الجزاء الوافي

وعادت الآيات إلى مخاطبة النبي ﷺ، تثبته وتواسيه، مما يدل على شدة ما كان ﷺ يعاني من عنادهم وغلظتهم، كما تدل على أنها نزلت عليه وهو في مكة المكرمة، في ذروة مواجهته للمشركين، وتؤكد على تقرير المسؤولية الكاملة والجزاء الوافي لجميع المكلفين:

﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ أي: لا تكن في شك من سوء عاقبة ما يعبد هؤلاء المشركون، الذين تواجههم وتلقىٰ منهم الأذى والجحود.

﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾ أي: ما يعبدون إلا الأصنام والأوثان، كما كان آباؤهم يعبدونها، فهم مثل آبائهم في الشرك والكفر، وسيصيبهم مثل ما أصاب آباءهم، كما قصصنا عليك.

﴿وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ [١٠٩] أي: وإنا سننزل بهم نصيبهم المقدر لهم من العذاب، كاملاً غير ناقص.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ أي: آتيناه التوراة، فاختلف فيه بنو إسرائيل، آمن به بعضهم وكفر آخرون، كما اختلف قومك في القرآن الكريم.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٦٠.

(٢) التين: الآية ٦.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم﴾ أي: ولولا أنه تعالى قدر ألا يعاجل الكافرين بالعذاب، وأن يمهلهم إلى الأجل المقدر لهم، لأنزل العذاب الذي يميز بينهم وبين المؤمنين، فيهلك الكافرين وينجي المؤمنين، كما حدث فيما قصه علينا.

﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ [١١٠] أي: وإن كفار قومك ليستحقون معاجلتهم بالعذاب؛ لأنهم لفي شك منه وارتياب.

﴿وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ أي: وإن كلا الفريقين، المؤمن والكافر، مسؤولون أمام الله تعالى، وسيوفيهم جزاء أعمالهم من ثواب وعقاب.

﴿إنه بما يعملون خبير﴾ [١١١] أي: عليم بحقيقة أعمالهم، لا يخفى عليه شيء منها، ولهذا سيكون الحساب كاملاً، والجزاء من عقاب وثواب وافياً.

الأمر بالاستقامة

فالناقد بصير، وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت، والإنسان تحت الرقابة الإلهية الدائمة، وهو مسؤول أمام الحق تعالى مسؤولية كاملة، وهذا يفرض عليه الالتزام الدائم بدين الله تعالى وشرعه، والاستقامة الكاملة على منهجه، ولهذا توجهت الآيات إلى النبي ﷺ، تأمره أمراً صريحاً قاطعاً ملزماً:

﴿فاستقم كما أمرت﴾ أي: كن دائماً على الصراط المستقيم، الذي أمرك الله تعالى به، فهو أمر شامل لكل أوامر الله تعالى، في العقيدة والعبادة والمعاملة، وتحمل أعباء الرسالة، وتبليغ الأمانة.

ولا بد أن يستشعر القارىء لهذه الكلمات أنها أمر علوي، أمر به النبي ﷺ، صدر من ذات آمرة، وليس نابعاً من ذاته ووجدانه، كما يزعم الجاحدون لظاهرة الوحي.

كما يدرك المتدبر للآية ثقل المسؤولية الملقاة على عاتق النبي ﷺ ، فمهمته ثقيلة، ومسؤوليته متميزة عن غيره من الناس، ولهذا وجه له الخطاب أولاً.

ولما كان ﷺ أعظم الناس معرفة بالله تعالى، وأشدهم خشية له جل جلاله، كان أكثر الناس تقديراً لخطورة الأمر الإلهي، الذي أمره الحق به، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية أشد من هذه الآية ولا أشق [1].

ثم عمم سبحانه الأمر بالاستقامة إلى جميع المؤمنين، فقال:

﴿ومن تاب معك﴾ أي: وليستقم أيضاً من تاب من الكفر والشرك، وشاركك في الإيمان والسير على طريق الإسلام.

﴿ولا تطغوا﴾ أي : لا تنحرفوا عن حدود الله التي شرعها لكم بإفراط أو تفريط، فإن أي تجاوز للحدود المشروعة يخل بحقيقة الاستقامة، كما قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ [2].

وقال أيضاً: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ [3].

ومن هنا كانت الاستقامة شديدة وثقيلة، فهي تستدعي أولاً فقهاً لدين الله تعالى وعلماً بأحكامه، كما في قوله تعالى: ﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾[4]، وقول النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[5].

كما تستدعي الاستقامة أيضاً خوفاً من الله تعالى، ومراقبة له، ولهذا

---

(١) روح المعاني: ١٥٢/١٢.
(٢) الأنعام: الآية ١٥٣.
(٣) البقرة: الآية ٢٢٩.
(٤) البقرة: الآية ٢٣٠.
(٥) صحيح البخاري، كتاب العلم، (٧١).

ختم سبحانه آية الأمر بالاستقامة فقال:

﴿إنه بما تعملون بصير﴾ [١١٢].

فشأنها شأن خطير، ولهذا قال العلماء: الاستقامة عين الكرامة، فمن وفقه الله تعالى إليها فقد أكرمه أعظم كرامة، وله عند الموت أكبر بشارة، قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ (١).

الركون إلى الظالمين

ثم حذرتهم الآيات من أمر كبير خطير، يصادم الاستقامة ويخالفها مخالفة كاملة، بقوله تعالى:

﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ أي: لا تميلوا أدنىٰ ميل إلى الظالمين مهما كانوا. والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم، والتهديد عليه، وخطاب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، للتثبيت على الاستقامة، التي هي العدل، فإن الميل إلى أحدي طرفي الإفراط والتفريط، ظلم على نفسه أو على غيره(٢).

والركون حقيقة الاستناد والاعتماد، والسكون إلى الشيء والرضا به، ولهذا نقل العلماء في بيان حقيقته أقوالاً متقاربة. قال قتادة: معناه لا تودوهم ولا تطيعوهم، وقال ابن جريج: لا تميلوا إليهم. وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم (٣).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تداهنوا. وقال ابن جرير عن ابن عباس: لا تستعينوا بالظلمة، فتكونوا كأنكم رضيتم بأعمالهم (٤).

---

(١) فصلت: ٣٠.

(٢) تفسير أبي السعود ١٤٤/٥.

(٣) تفسير القرطبي: ١٠٨/٩.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤٦١/٢.

والآية عامة في جميع الظالمين، سواء كانوا من الكفار والمشركين، أو من عصاة المؤمنين، قال القرطبي رحمه الله: وهذا هو الصحيح في معنى الآية، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي، من أهل البدع وغيرهم، فإن صحبتهم كفر أو معصية(١).

﴿فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ [١١٣] أي: ليس لكم من دونه تعالى أولياء ينقذونكم، ولو وجدوا لا يستطيعون نصركم.

فالركون إلى الظالمين ظلم في نظر الإسلام، لأنه يشجع الظالمين على ظلمهم، ويجعلهم يتمادون فيه. ولعمري إن الآية أبلغ شيء في التحذير عن الظلمة والظلم، ولهذا قال الحسن: جمع الدين في لائين. يعني ﴿لا تطغوا﴾ ﴿لا تركنوا﴾.

ويحكى أن الموفق أبا أحمد طلحة العباسي، صلى خلف الإمام، فقرأ هذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف الظالم (٢).

وقال الله للنبي ﷺ: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً. إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ (٣)، وإذا كان هذا حال النبي ﷺ، فما حالنا، أسأل الله تعالى أن يثبتنا على الحق، وألا يجعلنا فتنة للظالمين.

الصلاة والإحسان

ثم بين تعالى أفضل وسيلة يستعين بها المؤمن للثبات على الحق، ويعتصم بها من الزلل ومن الركون إلى الظالمين، فقال:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠٨/٩.
(٢) روح المعاني: ١٥٥/١٢.
(٣) الإسراء: الآيتان ٧٤ ـ ٧٥.

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾ أي: أقم الصلاة في الصباح والمساء، وفي ساعات من الليل، أو طائفة من الليل.

﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ أي: إن فعل الحسنات، كإقامة الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا والذنوب.

وفي الحديث الشريف عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتىٰ رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فأنزلت عليه: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ قال الرجل: ألي هذه؟ قال: «لمن عمل بها من أمتي»[١].

والسيئات التي تمحىٰ بأداء الصلوات هي الذنوب الصغيرة، أما الذنوب الكبيرة فلا بد لها من توبة، لقوله تعالىٰ: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾[٢]. ولقول النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر»[٣].

﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾ [١١٤] أي: إقامة الصلاة ذكرى للذاكرين، لأنها تذكرهم بالله تعالىٰ، ومسؤوليتهم يوم القيامة أمامه، فتبعثهم إلى طاعته، ويحجزهم عن معصيته، كما قال سبحانه: ﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾[٤].

﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [١١٥] أي: اصبر على إقامة الصلاة، والقيام بما كلفت به، وذلك بالدوام عليها والتمسك بها، كما

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير: (٤٦٨٧).
(٢) النساء: الآية ٣١.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الطهارة: (٢٣٣).
(٤) العنكبوت: الآية ٤٥.

قال تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ [1]، فإنه تعالى لا يضيع أجر المحسنين في طاعته وعبادته، وقد مر معنا أنه يوفيهم أجورهم كاملة من غير بخس، كما في قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ [2].

ودلت الآية على أن الصبر على الصلاة وغيرها من التكاليف الشرعية، يوصل إلى مرتبة الإحسان، وهي مرتبة رفيعة، عرفها النبي ﷺ بعد أن سأله جبريل عنها فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [3] وأشار عليه الصلاة والسلام في الجواب إلى حالتين، أرفعهما أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه، حتى كأنه يراه بعينه، والثانية أن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل، وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته، قال النووي: معناه أنك إنما تراعي الآداب المذكورة، إذا كنت تراه ويراك، لكونه يراك لا لكونك تراه، فهو دائماً يراك، فأحسن عبادته وإن لم تره [4].

الترف وانتشار الفساد

ثم بين تعالى أن من مسؤولية كل فرد، مقاومة المفسدين ودفع فسادهم، فإن ذلك من أهم أسباب سلامة المجتمع وبقائه، وإن شيوع الفساد في المجتمع وتغلب المفسدين عليه، يؤدي إلى هلاكه وسقوطه، فقال سبحانه:

﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في

---

(١) طه: الآية ١٣٢.

(٢) الكهف: الآية ٣٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان (٥٠).

(٤) فتح الباري: ١/١٢٠.

الأرض﴾ أي: هلا كان في الأمم الهالكة من قبلكم، أولوا عقل وفضل وقوة، ينهون المفسدين عن الفساد ويمنعونهم من نشره بين الناس.

وسمي الفضل والجود بقية، لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل، ويقال: فلان من بقية القوم، أي: من خيارهم، ومنه قولهم: في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا [1].

﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ أي: لكن القلة المؤمنة التي أنجيناها من الأمم الهالكة، ما كانت قادرة على قمع المفسدين، بسبب قلتهم وضعفهم، فالقادرون على قمع المفسدين كانوا هم المفسدين الذين اتبعوا شهواتهم ونزواتهم.

﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أي: تركوا النهي عن الفساد واهتموا بتحصيل شهواتهم وسرفهم وترفهم.

ولا شك أن الترف والتبذير من أهم أسباب شيوع الفساد في المجتمعات، ولهذا نرى المترفين في كل عصر أكثر الناس فساداً، وأشدهم مسارعة إلى مقاومة دعوة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ [2]، وقال أيضاً: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ [3].

﴿وكانوا مجرمين﴾ [١١٦] أي: وكان هؤلاء المترفون مجرمين، ارتكبوا جرائم كثيرة، ونشروا فساداً كبيراً، حتىٰ وصلوا إلى ما هم عليه من السرف والترف والتبذير.

وكلمة ﴿لولا﴾ فيها معنىٰ التفجع والأسف، وفي ذلك إشارة إلى أنه تعالىٰ ما خلق الخلق ليعذبهم فهو الرحمٰن الرحيم والبر الكريم، وأنه تعالى

---

(١) تفسير النسفي: ٢٠٨/٢.

(٢) الزخرف: الآية ٢٣.

(٣) الإسراء: الآية ١٦.

ما أهلكهم إلا بسبب ظلمهم وفسادهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ [١١٧] أي: الله سبحانه لا يهلك الأمم ويسقط الحضارات، ما دام أهلها على صلاح وخير وهدى، فهو الحكم العدل المنزه عن الظلم.

وقد يكون المراد من الظلم هنا الشرك والكفر، كما في قوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[١] والمعنىٰ أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، فلا يظلم بعضهم بعضاً، ولا يبغي أقوياؤهم على ضعفائهم، فعذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات، وسعوا في الإيذاء والظلم، ويقال في الأثر: الملك يبقىٰ مع الكفر ولا يبقىٰ مع الظلم، والدليل عليه أن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكىٰ الله عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق [٢].

وأكد هذا المعنىٰ القرطبي رحمه الله فقال: دل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب، وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[٣].

فالمجتمعات البشرية التي يتحكم فيها الفاسدون والظالمون، ويشيع فيها الظلم والعدوان واضطهاد الضعفاء، هي المجتمعات التي يتسارع إليها الهلاك والدمار، وتنتهي بالسقوط قبل غيرها من المجتمعات، وشواهد التاريخ ووقائع العصر الحاضر، تصدق ذلك وتؤكده.

---

(١) لقمان: الآية ١٣.

(٢) تفسير الرازي: ١٤٤/٥.

(٣) تفسير القرطبي: ١١٤/٩.

وهذا يبين لنا خطورة الركون إلى الظالمين، والوعيد الشديد لكل من يداهنهم ويمالئهم، فضلاً عمن يعاونهم على ظلمهم واستبدادهم.

الرحمة والخلق

ثم بين تعالى كمال قدرته وتمام حكمته ورحمتـه وإحسانـه في مخلوقاته، فقال:

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ أي: لا اختلاف بينهم ولا نزاع، كما في قوله سبحانه: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتىٰ يكونوا مؤمنين﴾ [1].

ولكنه تعالى خلقهم ليبتليهم ويختبرهم، فجعل لهم اختياراً وقدرة على التمييز بين الخير والشر، وهذا سر استمرار الاختلاف قائماً بينهم.

﴿ولا يزالون مختلفين [١١٨] إلا من رحم ربك﴾ أي: لا يزالون مختلفين في الحق مخالفين له، إلا من هداهم الله تعالى إلى الحق ورحمهم، لأنه علم منهم حسن الاستعداد للخضوع للحق والرضا به والالتزام بمنهجه، كما في قوله سبحانه: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتـوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [2].

﴿ولذلك خلقهم﴾ أي: خلقهم ليرحمهم ويسعدهم بطاعته وعبادته، كما في قوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[3].

ويحجب أكثر الناس أنفسهم عن رحمته تعالى، بكفرهم وظلمهم،

---

(١) يونس: الآية ٩٩.

(٢) البقرة: الآية ٢١٣. انظر: الإسلام لله تعالى في سورة البقرة.

(٣) الذاريات: الآية ٥٦.

ويعرضون أنفسهم للعقاب والعذاب بسوء اختيارهم.

﴿وتمت كلمة ربك﴾ أي: حقت ووجبت.

﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [١١٩] أي: لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين، الذين أعرضوا عن عبادته وطاعته، ولم يصدقوا بمسؤوليتهم عن أعمالهم أمامه تعالى.

والحساب والجزاء أمر ضروري يدل على كمال حكمته تعالى ورحمته في خلقه، كما في قوله: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ [١].

(١) الأنعام: الآية ١٢. انظر: بصائر الحق في سورة الأنعام.



الخَــاتــمَة

وأخيراً ختم الله تعالى السورة بإجمال ما فصله فيها، فقال:

﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ أي: في كل نبأ نقصه عليك من أنباء الرسل السابقين، تثبيت لقلبك على الحق، وأنت تواجه عناد المشركين وأذاهم.

﴿وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ [١٢٠] أي: وجاءك في هذه السورة بيان الحق الثابت الذي لا محيد عنه، إلىٰ جانب ما فيها من موعظة بليغة، وتذكرة نافعة للمؤمنين.

﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم﴾ أي: اعملوا بالأسلوب والطريقة التي تختارونها لأنفسكم. فأنتم مسؤولون عن عملكم واختياركم، ومجزيون عليه أوفىٰ الجزاء وأعدله في الدنيا والآخرة.

﴿إنا عاملون﴾ [١٢١] أي: إنا عاملون على طريقتنا وأسلوبنا كما شرع لنا ربنا، وقد مر معنا أن نبي الله شعيباً قال لقومه مثل ذلك: ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب﴾.

وكذلك قال تعالى هنا:

﴿وانتظروا إنا منتظرون﴾ [١٢٢] أي: انتظروا عاقبة كسبكم

واختياركم، إنا منتظرون ما وعدنا ربنا من فضله ورحمته.

﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ أي: ملكاً وعلماً وتدبيراً، لا تخفىٰ عليه خافية.

﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾ أي: إلى قدرته ومشيئته وعلمه يرجع أمر الخلق كله.

﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فإنه كافيك وناصرك.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ [١٢٣] فلن يترككم جل وعلا دونه مسؤولية وجزاء.

وهكذا أظهر سبحانه بهذا الإجمال، جميع ما سبق تفصيله في آيات السورة، إنه الإحكام والتفصيل في التنزيل الحكيم، وإنه حقاً كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

مراجع الكتاب

- صحيح البخاري مع فتح الباري، توزيع إدارات البحوث العلمية.
- صحيح مسلم، تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، توزيع إدارات البحوث.
- الجامع لأحكام القرآن ـ تفسير القرطبي ـ دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٣٨٧ هـ.
- تفسير النسفي، دار الكتاب العربي ١٤٠٢.
- حاشية الصاوي على الجلالين، البابي الحلبي، ١٣٦٠ هـ.
- مفاتيح الغيب ـ تفسير الرازي ـ دار الطباعة العامرة.
- تفسير أبي السعود ـ مطبوع بهامش مفاتيح الغيب.
- تفسير ابن كثير. دار الفكر ـ تصحيح نخبة من العلماء في مصر.
- روح المعاني للآلوسي البغدادي. دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ.
- جامع البيان ـ تفسير الطبري ـ ط ٣. البابي الحلبي ١٣٨٨ هـ.
- في ظلال القرآن الكريم. دار إحياء التراث العربي ببيروت. ١٣٩١ هـ.



الفهـرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الأول

الفصل الثاني